الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أغنية لمارغريت

رواية

لنا عبد الرحمن

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أغنية لمارغريت

رواية

لنا عبد الرحمن

fb/mashro3pdf

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1432 هـ - 2011 م

ردمك 978-614-01-0152-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

لتنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

fb/mashro3pdf

إلى يان أندريا(*)

بيروت، 14 تموز

من: زينب

يان..

قطرات الماء على كتفي العارية منثورة كنمش خفيف على وجه أبيض. أتركها لتجف وحدها. أنت تحب هذه القطرات. في أيام البرد تلسعني ملامسة الهواء لها، لكن الحر خانق الآن، والعثور على ماء للاستحمام في وقت الحرب أمر يرتبط بالقدَر الذي قد يرمي بك للتواجد في خيام النازحين، أو أن تكون في قلب بيت. نحن الآن في بيت مغلق، لا يأتي إليه أصحابه إلا أياماً قليلة في صيف كل عام.

الكلمات التي أكتبها في العتمة، هذه السطور التي سأكرر كتابتها غداً على جهاز الكمبيوتر لأرسلها إليك، تمدني بالقدرة على المقاومة، وعلى البقاء وسط هذا العبث.

أكتب بحثاً عنك، وعن مارغريت دوراس التي وجدت مكانها في الكتابة... أكتب كي أكتشف ماهية علاقتي بها، وبك. إذ كثيراً ما فكرت: لماذا أحبتك مارغريت دوراس وعاشت معك حتى لحظاتها الأخيرة؟ ظللتَ قربها، تساعدها على الرحيل بهدوء، وظلت تحبك.

* * *

(*) يان أندريا: الحبيب الأخير للكاتبة الفرنسية مارغريت دوراس، عاش معها 15 عاماً، كان كاتباً شاباً في الثامنة والعشرين من عمره، وكانت في الخامس والستين حين بدأت قصة حبهما. كان معجباً بنصوصها في بداية العلاقة ثم وقع في غرامها، وبعد رحيلها كتب عن علاقته بها كتاباً بعنوان "هذا هو الحب".

fb/mashro3pdf

تـــك، تـــك، تك، دار القفل في الباب ثلاث مرات. سكون، عتمة، وكما لو أن الأشباح التي تتحرك بحرية بدأت بالتلاشي بعد أن ضـــغطت الأم على زر الإنارة. انعكس ضوء أبيض على أثاث غرفة الصالون الفسيحة المفروشة بأثاث باهظ الثمن، بدت التماثيل المستقرة في الـــزوايا تنظـــر إليهم بوجوم ودهشة. التحف المعلقة على أرفف صغيرة، أو التي في المكتبة، علاها الصمت أيضاً، اللوحات الثلاثة التي تمثل البحر، الشيء الوحيد الذي استقبلهم بابتسامة مرحبة. أما رائحة البيت فكانت مزيجاً من رائحة الرطوبة مع سائل التنظيف. كان هذا الجـــو متناقـــضاً تمامـــاً مع المكان الذي أتوا منه. ثمة أصوات قذائف وصـــواريخ، ما زالت تطن في آذانهم جميعاً، ورائحة بارود عالقة في ثيابهم.

دخلت الأم أولاً، تبعها ابنها الأكبر وسام وفي يده حقيبة متوسطة الحجـــم، كانـــت قامته الطويلة والعريضة تحجب زينب وما تحمله من أغـــراض. أمـــا ســـامر فقد بدا مترنحاً لأن كلتا يديه مثقلتان بحقيبتين ثقيلتين، وضعت الأم فيهما حاجيات الأسرة الضرورية.

حـــين دخلـــت الأم إلى الصالون ظهر في عينيها لمعان الرضا عن الذات، لأنها قامت منذ أيام بالإشراف على تنظيف الشقة، كما طلب مـــنها أخـــوها، الذي كان على وشك القدوم مع عائلته لقضاء إجازة الصيف.

ســـارعت الأم إلى فـــتح نوافذ الصالون، فدخل نور خفيف إلى المكان. تبددت معه الظلال سريعاً، وغمرت الأشياء يقظة، وسط دعوة مفاجئة للتنبه.

بـــدأ كل منهم حملَ أغراضه والبحث عن مكان مناسب لها. الأم دخلـــت إلى غـــرفة النوم الرئيسية، تحمل حقيبة يدها الجلدية، وحقيبة

fb/mashro3pdf

أخرى وضعت فيها أغراضها الخاصة، لحقت بها زينب وفي كلتا يديها حمولة صغيرة لأشياء متفرقة تم جمعها عشوائياً.

دخـــل وسام إلى غرفة نوم صغيرة مجاورة للصالون، وضع حقيبته فـــيها، ثم خرج وهو ينظر إلى الجميع قائلاً: "هذه غرفتي"، كما لو أنه بهـــذه العبارة المباشرة يمنع أي أحد من الدخول إليها. جلس سامر في آخر جزء من الصالون الفسيح، وأمامه على الأرض حقيبة من القماش الـــسميك وضـــع فـــيها بعض ملابسه، ذلك الجزء من الصالون يتم استخدامه كغرفة معيشة، ومن الممكن حجبه عبر سحب ستارة ذهبية موشاة بنقوش لامعة، تفصل المكان إلى قسمين.

في البداية، لم يجرؤ أحد من أفراد الأسرة على الاقتراب من الغرفة المغلقـــة، التي أطلقت عليها عائلة خالها اسم "غرفة القتيلة". كان جميع أفـــراد العائلة يحكون عن حوادث غريبة تقع لكل من يحاول الحياة في تلـــك الغرفة. حدث هذا منذ بداية سكن خالها في الشقة قبل عشرين عامـــاً، حين اشتراها في منطقة "الصنايع" بسعر أقل من سعرها، وقيل حينها إن تلك الشقة توجد فيها غرفة قُتلت فيها فتاة شابة في العشرين مـــن عمرها، لذا كان كل من ينام في الغرفة يسمع تمتمات وبكاء يمنعه من الرقاد.

حـــين تجـــرأت زيـــنب على الاقتراب وفتح باب الغرفة المغلقة، لاحظـــت طـــبقةً مـــن الغبار تعلو الأثاث، فاستنتجت أن أمها تجنبت الدخول أيضاً إلى تلك الغرفة عندما قامت بتنظيف الشقة.

يبدو بيت خالها الآن، بغرفته المهجورة، والمُغبرة، مكاناً بعيداً عن الحـــرب، عن أصوات القذائف، وخطر الموت رعباً. لكن علاقة زينب مـــع هـــذا المكان تبدو ملتبسة، لأنها تحس بغربة تامة عنه. رغم حبها لـــصاحب البيت، إلا أنها لم يسبق أن تحركت فيه بحرية، كانت تحس

fb/mashro3pdf

كلما أتت لزيارة خالها أنها مقيدة بوجود زوجته وبناته، لأنها لم ترتبط معهن سوى بعلاقة إلزامية بحكم القرابة.

لـــذا لم يُفـــرح زينب هذا الانتقال، على الرغم من وجود ماء، وكهـــرباء، وهاتـــف، وتلفزيون يتابعون عبره الأخبار. عند مغادرتها البـــيت مـــع عائلـــتها، لم تأخذ معها سوى بعض ملابسها، وجهاز الكمبيوتـــر، وروايـــات مارغـــريت دوراس، وكـــتاب يان أندريا عنها.

وضعت زينب الكمبيوتر على طاولة صغيرة في الجزء الأمامي من الـــصالون، قـــرب الـــنافذة المطلة على "حديقة الصنايع". نظرت الأم باســـتخفاف إلى أغـــراض ابنتها، وإلى انشغالها في تثبيت الكمبيوتر في مكان مناسب، و لم تعرف زينب هذه المرة إن كانت تلك النظرة بسبب اللـــيلة الطـــويلة التي أمضوها تحت أصوات الصواريخ، أم إنها النظرة المستخفة شبه الدائمة نحوها.

الأم تكاد تفقد عقلها بسبب الحرب، وتفكر في الرحيل إلى الجبل حيث كانت أختها تمضي أيام الصيف. لكنها لم تجد دعوة صريحة من الأخـــت، واعتـــزازها بنفسها لا يسمح لها أن تفرض حضورها هي وأولادها بحجة الحرب المباغتة.

رغـــبة الأم في البحث عن مكان أكثر أماناً من شقة أخيها، يُشعر زيـــنب بالخزي، يَظهر هذا على ملامح وجهها كلما تحدثت الأم عن ضـــرورة مغادرة بيروت نحو البقاع، أو الجبل. مما يدفعها لوصف حال أمهـــا بأنهـــا "فقدت عقلها". تحس زينب بالغليان أكثر وهي تنظر من النافذة إلى جموع النازحين الذين ينصبون خيامهم في حديقة "الصنايع"، كيف يتعايشون مع الحرب، ومع نقص الماء والطعام، السجائر وحليب الأطفال. ينامون في الخيام، وعلى الأرض، أطفالهم يستحمون في العراء،

fb/mashro3pdf

أما النساء والرجال فيلجأون إلى تدابير مختلفة، كأن يقوموا بالاغتسال في طرف الخيمة مداراة لأجسادهم العارية.

تـــتلفت الأم في أرجاء المنـــزل، تتحسر بنقمة على الحياة المرفهة التي ضاعت منها، لأن زواجها نقلها –من وجهة نظرها– إلى مستوى اجتماعـــي أقـــل، وجعلها تظل طوال عمرها من سكان "بير العبد" في "الـــضاحية الجنوبية"، بدلاً من أن تسكن في قلب بيروت، حيث تربَّتْ وكـــبرت. الـــتواجد مـــع الأم بالنسبة لزينب لساعات طويلة، ولأيام متواصلة، أمر مزعج جداً، خصوصاً أنها ستضطر للمبيت معها في غرفة مـــشتركة، حـــتى اللحظة التي تتجرأ فيها على تنظيف الحجرة المغلقة، والمبيت فيها. تسبب لها أمها إحساساً بالتوتر، تحديداً حين تضطر زينب لتـــبديل ثيابها في وجودها وهذا ما تتجنبه دوماً، فالأم لا تفوت فرصة لانتقاد جسد ابنتها الرفيع من دون تناسق، والشعر الذي يغطي ساقيها وأعلـــى فخذيها، وفي بعض الأحيان لا تتأخر في تذكيرها أنها لم ترث جمالها الأرستقراطي، وأن بشرتها سمراء، وفيها بثور لأنها أخذت ملامح عائلة أبيها.

كلمـــا نظرت زينب إلى أمها أحست باستفزاز. كان شعر الأم بنـــياً فاتحاً مصبوغاً بإتقان، شفتاها مطليتان غالباً بلون خمري غامق، عيناها يتطابق لونهما مع لون شعرها، أنفها رفيع وصغير يبدو كما لو أنـــه يحتقر العالم، بالإضافة إلى أنها تصر على ارتداء ثياب أنيقة داخل المنـــــزل حـــتى في أيـــام الحرب، هناك أيضاً تبرمها الدائم، نظرتها الساخرة، تحسرها على ترملها المبكر، وعلى عمرها الذي ضاع هباء في تربية أولادها.

تـــتحول الأم إلى كائن ضعيف ومستسلم أمام ابنها الأكبر وسام. يـــأتي لـــيطلب منها المال، تمنحه إياه وهي تشعر بالسعادة لأنها تحس

fb/mashro3pdf

بحاجـــته المستمرة إليها، تتظاهر بالاعتراض في بداية الأمر، لكنها تقوم بالتصرف نفسه في كل مرة: الاعتراض ثم المنح. وهو سيظل محتاجاً لها مـــا دامـــت تملـــك مالاً، وسيمنحها بعض الاهتمام والعطف لقاء ما يأخذه. يأتي وسام ليأخذ المال كي يختفي لأيام عدة، ثم يعود للإقامة في البـــيت وهكـــذا. أما الآن في أيام الحرب، فهو مضطر للاستقرار مع العائلـــة، يتـــنقل بين الصالون وغرفة النوم، مبدياً انـــزعاجه من هذا الحصار، ثم يعود إلى غرفته التي استقل بها، ومنع سامر من المبيت معه، لأنـــه يجب أن يحظى بغرفة مستقلة، بما أنه الأخ الأكبر. غرفة مستقلة، ليخفي علب البيرة وزجاجات الويسكي عن عيون الآخرين.

لكـــن أكثر ما هو مزعج بالنسبة لزينب أن تمسك علبة الثقاب، فـــتجد أنها تحتوي على سيجارة مسحوقة وعود ثقاب تم استخدامه من قـــبل، أو حين تأخذ أمها آخر سيجارة من علبة سجائرها، وتتجاهل تمامـــاً حاجتها للسجائر. تعرف الأم أن زينب لن تقدر على مواجهتها بهـــذا أبداً. كانت الأم تدخن في الليل سراً، وتضع السيجارة ورمادها وعود الثقاب في علبة الكبريت الفارغة، لكنها تنسى أن تلقي بها بعيداً، أو تتكاســـل وتـــؤجل الأمـــر حتى الصباح، لا تشعل سيجارتها أمام أولادهـــا، لأنها تريد أن تبدو أماً مثالية دوماً، في بيتها كانت تدخن في غـــرفتها الخاصة، لذا لا يمكن ملاحظة هذه التفاصيل الصغيرة. وبما أن علـــبة الـــثقاب الفارغة موجودة في الغرفة المشتركة، فليس هناك مجال للشك في أحد آخر.

* * *

يان..

الـــوقت الآن ليل، لكنه تشابه مُضْنٍ يرهقني، يدفعني للكتابة لك، أبحث عنها، وعنك.

fb/mashro3pdf

أنـــت تعرف ما لا أعرفه، لكنك لا تعرف شيئاً عني. سأثق بك كي تضع حداً للتشابه الذي يرهقني، للتشابه الذي ربما يكون وهماً، أو هروباً من الحقيقة. لكن هل هناك ما يُسمى حقيقة؟

الأســئلة كــثيرة ومــتلاحقة في ذهني، عن الكتابة، عن عزلتنا الــشديدة، والموغلة، عزلتنا داخل عقولنا، داخل كوكب خاص بنا، لا يمكن لأحد اختراقه، كما لا يمكننا التحرر منه. أفكر لماذا أكتب إليك، ما جدوى ما أفعله؟

أحــياناً أحس، كما لو أني أنــزف في داخلي، أنــزف نــزفاً شديداً غير مرئي، وأن ثمة دماء تسيل، وتتركني ضعيفة جدا لأنها تأخذ جــزءاً مــن عافيتي. هل تفهمني؟! كما لو أن مجهولاً يمسك بجسد ما، ويدفعــه إلى صــخرة قاسية حتى ينخدش وينجرح ويسيل دمه، هذا النــــزف، أراه، لكن لا يمكنني فعل شيء معه. هل الإنسان هش إلى هــذه الدرجة؟ لماذا لست قوية مثلها، مثل أمي؟ هل أمي قوية حقاً، ثم ما مقياس القوة، وما مقياس الضعف؟

هؤلاء الذين يتظاهرون بالقوة، هم من الهشاشة بحيث يعتقدون أن اصطناع القوة يحميهم تماماً، لكن قوتهم الوهمية تبعدهم إلى وقت محدد، حتى يقعون في لحظة مستسلمين للقدر الذي يحكم الجميع.

لعــل الفــرق بيني وبينهم أني أعترف بهشاشتي، وأتقبلها، أتقبلها كمــا نتقبل طفلاً معاقاً نحبه، لأن الحب فقط ما يمنحه الحماية. وحده الحــب يساعدنا على مقاومة العزلة الكونية المفروضة علينا. ربما يكون كل ما يدور حولنا، من فن ورسم وكتابة ورقص وغناء وجنس، أشياء لا يريد منها الإنسان إلا كسر عزلته. ورغم ذلك يظل -بكل تفاهة- معــزولاً وأخرق، لأنه غير مدرك أن حيز تلاقيه مع الآخر لا يشغل إلا جــزءاً ضــئيلاً جــداً من زمن حياته. حتى الذين يحبون، أو يقومون

fb/mashro3pdf

بعلاقات جنسية عابرة، يقومون بها كسراً لطوق عزلتهم، ثم في ما بعد يعـــودون للعـــزلة نفـــسها للانسلاخ عن الآخر والعودة إلى دوائرهم الخاصة.

أتفهمني يان؟ أتدري لِمَ أكتب إليك؟ ربما لأني أظن أنك عرفت العـــزلة التي أحكي عنها، عزلة الزمن، والوقت القليل، والحب، الحب بكل أشكاله وتقاطعاته.

ثمة تقاطعات كثيرة في الحب، أليس كذلك؟

هل آلمتك مارغريت يوماً؟

هل كنت تحبها حتى إنك لم تفكر بالألم، بماذا كنت مأخوذاً فلمْ تدرك الوجع إلا في وقت متأخر، بعد أن غابت عن عالمك؟

أنـــت لا تملـــك الإجابات عن كل هذه الأسئلة، أعرف، لكني أستمر في الكتابة إليك. في الوقت الذي لم يعد يتذكرك أحد فيه، أفتش بين أوراقك، أعبث بذاكرتك، وأسألك عنها، مضى على رحيلها أعوام كثيرة. كان العالم يتسع أكثر وأنت تحكي عن شغفك بها، تلك العجوز الساحرة بأي إكسير تمكنتْ من أسر قلبك حتى الآن.

سأستمر في الكتابة، لك، عنك، عن مارغريت، وعني، لأصل إلى يقيني الخاص الذي يمنحني الخلاص.

* * *

في البـــيت، داخل غرفتها في الطابق العلوي، تكون مارغريت وحدها. في البيت فقط تكون وحدها وتحس بالضياع المخيف الذي تكـــتب عنه، في الحديقة هناك كائنات تشاطرها الوحدة؛ عصافير، حشرات، قطط، فأر صغير يعبر سريعاً في لحظة خاطفة. لكن هنا في هـــذه الحجرة –التي تحتوي على طاولة وسرير وخزانة خشبية مطلية بلون أزرق فاتح– حين تكون ستارة نافذتها منفرجة قليلاً ليبرز منها

fb/mashro3pdf

شـــق من الضوء، خيط طولي رفيع لا يكفي ليهدد الوحدة والعتمة، تـــدرك أنها مكثت هنا عشر سنوات، تؤلف رواياتها، وتصوغ حكايات جارحة عن ألم عتيق، كان من المفترض أن يُنسى منذ زمن طويل.

الـــبارحة تـــشاجرت معه، صدّت الباب في وجهه، طلبت منه الـــرحيل، ظل هو جالساً عند حافة البوابة ينتظر عبور نوبة اغترابها ووحـــدتها. كانت ثملة وهي تطلب منه الذهاب بعيداً، وكانت تفكر بما يريده منها هذا الشاب. قلب باريس كرنفال من المسرات، يتركه هذا الأحمق ليطرق باب امرأة عجوز، هي نفسها تظن أن كونها كاتبة لا يعطي مبرراً لهذا الشاب كي يكسر عزلتها ويبقى إلى جوارها.

نظرت من شق النافذة نحو الحديقة، العصفور يقف على غصن الشجرة الصغيرة، سيطير سريعاً لو أحس بحركتها عبر مسافة بعيدة، تكـــره أن تكون سبب فرار العصفور، إذ رغم طول زمن بقائها في هـــذا البـــيت، وفي تلك الحديقة، ما يزال العصفور الصغير يسارع بـــالطيران حين يحس باقترابها. مررت يديها على شعرها وهي تفكر بالنـــــزول إلى الطابق السفلي لإعداد قهوتها. في هذا الركن الصغير كتبت "انخطاف لول ف. شتاين". هنا حدث انخطاف لول إلى مكان مجهول، هنا اكتشفت تلك الحكاية الغامضة. منذ "انخطاف لول ف. شتاين" أدركت أنها وحيدة تماماً مع كتابتها، مع صور أبطالها الهاربين والضائعين. كانت وحيدة دوماً، لكن وحدتها مع كتبها الأولى تختلف عنها الآن، إنها الوحدة نفسها في الأماكن كلها. هنا ظهرت لها "لول فاليري"(*)، وفي هذا الوقت أيضاً لمع اسم يان أندريا في حياتها. لماذا رحلت "لول" وبقي "يان" هنا؟

(*) رواية لمارغريت دوراس بعنوان "انخطاف لول. ف. شتاين".

fb/mashro3pdf

والآن، لماذا يأتي يان أندريا ليفرض حضوره على هذه العزلة؟

اعـــتادت منذ وقت طويل ألاّ تحسب الزمن. تدرك مارغريت بعمـــق أن محنـــتها الكبرى هي مع الزمن السائر. لذا لم تعد تقربه، تجاهلـــته تمامـــاً، وقررت الحياة من دون ساعات وأيام، رفضت هذا التقـــسيم الأبله للأيام والأعوام. وفي دورة هذا التجاهل ضاع من ذاكرتها اليوم الواقعي. كانت تقول: "لماذا لا يكون اليوم هو الثلاثاء بدلاً من السبت؟ لماذا لا يكون هذا العام هو العام السابق أو التالي؟ لمـــاذا عليَّ الرضوخ لتقسيمات ابتدعها الآخرون وجعلوا منها قانوناً يـــسري علـــى العالم كله؟". لن ترضخ لهذا القانون وستعيش زمنها الخاص.

في عزلتها تعرف الصمت، تقترب من السكون، ترى وجه الإله شـــفافاً مـــثل غلالة غيم، نقياً، وبريئاً، فرحاً كما يكون الفرح. لذا كانت تخشى الاقتراب أكثر، تشيح ببصرها بعيداً متواطئة مع صمتها الكثـــيف. تعرف أن هذه العزلة تمنحها غبطة قدوم أبطالها الهاربين، عليها أن تصمت طويلاً كي تتيح لهم مجالاً للوصول، للكلام، للبوح بحكاياهم، كي تكتب.

في تلـــك العزلة، ماذا كان عليها فعله سوى الكتابة؟ أن تقلب أقـــلام الحبر الكثيرة السوداء الموجودة على طاولتها وتختار أي قلم ستكتب به هذا اليوم. أوراق الكتابة بيضاء تماماً، خالية من السطور، هناك أقلام حمراء وخضراء، كي تضع خطوطاً بجانب الكلمات التي ينبغي عليها العودة إليها.

* * *

في المـــساء، بينما كانت زينب تكتب على الكمبيوتر، وتتابع مع أمهـــا مـــشاهد الحرب على التلفزيون، فاحت من غرفة وسام رائحة

fb/mashro3pdf

سيجارة حشيش. تُميز هذه الرائحة جيداً، والأم أيضاً، لأن وسام حين يـــضطر للإقامة في المنـــزل لأيام لا يتورع عن إشعال سيجارة حشيش في غـــرفته. هو متأكد أن الأم لن تجرؤ على إغضابه، وستغض الطرف لأنه سيهددها بمغادرة البيت نهائياً.

وقفـــت الأم وهي ترتدي قميص نوم من الساتان الأزرق، ادعت أنهـــا ذاهبة لتحضير العشاء كي تتخلص من الموقف. بعد قليل فاحت رائحـــة البـــيض المقلـــي بالزبدة، وكادت تطغى على رائحة الحشيش المتـــسربة من الغرفة المجاورة. نادت الأم على زينب وسامر لمشاركتها العـــشاء، ولم تجرؤ على الاقتراب من غرفة وسام، تجاهلته تماماً. جلس ثلاثتهم قرب صينية الطعام التي احتوت البيض والجبنة واللبنة والزيتون الأخـــضر. خلال العشاء كانت الأم تحكي عن الحرب، وتطرح أسئلة وتجـــيب عـــنها، حول الأماكن التي من المحتمل أن يكون ذهب إليها جيرانهم ومعارفهم، ثم تختتم كلامها قائلة: "بي بكرة شو رح نسمع عن نـــاس ماتوا وما حدا عرف فيهن". أما سامر فقد عَبَّرَ عن ندمه لأنه لم يُحضر معه آلاته الموسيقية، وكما لو أن الأم تنبهت حينها إلى احتمال أن يغامـــر ابنها بالذهاب إلى البيت لإحضار الآلات الموسيقية، تلفتت نحوه بحسم وهي تقول: "إوعى حدا من صحابك يلعب بعقلك وتفكر تروح عالبيت، وتعلق هونيك أو يصيرلك شي، إوعى تعملها الله يرضى عليك".

لم يـــرد سامر واستمر في الأكل بشهية. زينب ظلت صامتة تراقبهما مـــن دون مشاركة في الكلام، ثم تحدثت لتؤيد وجهة نظر الأم في خطورة الذهاب إلى "بير العبد" في أجواء القصف والدمار، قالت إنه ليس هناك شـــيء إلزامي يُحتم المغامرة. رد سامر متهكماً أن زينب مرتاحة الآن لعدم وجود الآلات لأنها تنـــزعج من صوت موسيقى الروك.

fb/mashro3pdf

لم تكمـــل الأم مـــشاركتهما الحوار، وقفت وأخذت من فوق التلفزيون ورقة مكتوب عليها لائحة بالأطعمة والخضار التي ينبغي على زيـــنب إحضارها في اليوم التالي. لاحظت زينب أظافر يدي أمها التي بهت لون طلائها الوردي، كما لاحظت نقاط نمش قليلة على ظهر اليد تظهـــر مع التقدم في السن، أخذت منها الورقة وهي تسمع تنبيهاً ألا تتأخر صباحا في إحضار حاجيات المنـــزل.

حملت زينب صينية الطعام إلى المطبخ وهي تفكر أن وقت الحرب مهم بالنسبة إليها، لأنه أبعدَ عن ذهنها التفكير بالانتحار. فالموت مجاني ومتوفـــر بكثرة، الموت لم يعد حدثاً، أي أنها لو ألقت بنفسها الآن من هـــذه الـــنافذة، من هذه الشقة، ومن الطابق الثاني، في مبنى يطل على حديقـــة الصنايع، التي يسكنها النازحون، فلن يكون ذلك سوى خبر غريب، لكنه لن يكون حدثاً مهماً.

فكـــرت أن موتها سيكون مجانياً، لكن ليس هذا السبب فقط ما يـــبعد فكـــرة الانـــتحار عن ذهنها، بل الموت قبل الوصول إلى فكرة الخلاص الذي تبحث عنه.

مـــوتها في وقت السلم، حين كانت حياتها تعج بالفراغ والوحدة قـــد يؤدي بها إلى الخلاص. أما الآن فإن الحرب تمنحها الإحساس أنها كائن يستحق الحياة. الآن صارت تفهم إحساس المقاتل بأهمية دوره في زمـــن الحرب، ولماذا يحس بالهزيمة بعد انتهائها، حتى وإن كان منتصراً. لقـــد انتهى دوره، ويصير عليه العودة للحياة كأي رجل عادي، حينها تبدأ معاناته. ولو حدث وقام نـــزاع مفاجئ بين طرفين، سيبتهج لأنه قـــادر على تحويله إلى حرب كبيرة، لأن الحرب تعيده إلى دائرة الحياة، التي همشته في زمن السلم.

* * *

fb/mashro3pdf

يان

عند الصباح الباكر.

أحـــب المـــرور ببطء أمام عربة بائع الخضار، أحب رؤية وجهه المـــتفائل رغمـــاً عـــن جو الحرب، يرش رذاذ الماء البارد على النعناع والبقدونس والزعتر البري. ينادي على بضاعته بلهجته التي تكشف عن مكان قدومه، هكذا يعلن أن كائنات العربة ستفترق عن بعضها بعضاً بعد قليل وتتوزع في بيوت كثيرة، وتصير يقظتها الصباحية في الشارع مجرد ذكرى تنتشر في كل بيت.

رغم قيامي بالأعمال المنـــزلية منذ أعوام، إلا أنني غالباً ما أنسى حبات الطماطم في درج الثلاجة حتى تذبل، وحتى أعرف وخز الضمير لأني كـــنت مـــشغولة في حـــل نـــزاعات أبدية تبدأ داخلي مع كل صباح.

"لماذا لم يطرقوا جدار الخزان؟".

هـــذه العبارة لم تسمع بها أنت، ولم تقرأها.. أليس كذلك؟ لقد أخذتها من رواية لغسان كنفاني(*) أعطاني إياها مازن، سأحكي لك في يوم ما عن مازن، وعن حكايتي معه.

وأنا.. متى سأطرق جدار الخزان؟

مـــاذا كنتَ تفعل حين كانت مارغريت تسقي ورود حديقتها، ولماذا كنت ساهماً في كآبتك إلى هذا الحد؟

حين يكون زمني مائلاً للغيم، سأمر بيدي اليسرى بين خصلات شعرك الشتائية، وأترك أصابعي ترسم بكريما الفانيليا تجاعيد جبهتك.

(*) كاتب فلسطيني، ولد في عكا عام 1936، وتم اغتياله في بيروت على يد الموساد في 8 يولـــيو 1972، وكان عمره 36 عاماً. من أبرز رواياته "عائد إلى حيفا"، و"أرض البرتقال الحزين" و"العروس" و"الرجال والبنادق".

fb/mashro3pdf

العابـــرون في الـــشارع عند المساء يكونون مثقلين بكل حكايا يـــومهم، لذا لن يصدّقوا أن الفجر قد يحمل حبًا جديدًا، صافيًا كماء النـــبع. ثمة روح قُبلة مُعذبة ظلت معلّقة في الفضاء، فلا هي ظلت في سمائها العليا، ولا نـــزلت إلى جسم لطيف. سأتجاهل هذه الحقيقة. لا يمكنني تصديق أنك تهت عني، وأحببتَ الطمأنينة أكثر مما أحببتني. لكن هذا ما حدث.

* * *

كانـــت طاولـــة مارغريت وهي تجلس في المقهى، تواجه الباب المطل على شارع السان ميشيل. تتأمل مارغريت الفتاة التي تسير في الـــشارع، تتـــشبث بمعطفها وتتكلم بانفعال مع الرجل الذي يسير بـــرفقتها، تعاتـــبه، تتـــشاجر معه. كان يان منهمكاً في الحديث عن نـــص مـــسرحيته الجديدة، بدت ملامحه تفيض بالحيوية وبالرغبة في الحديث مع مارغريت عن أحداث المسرحية وأبطالها، لكنها قالت له فجأة:

– كـــل هـــذا سيـــصبح ذكريات في وقت ما، مجرد ذكريات منسية...

بدا يان متفاجئاً من كلماتها، سألها بخيبة:

– ما الذي سيصبح ذكريات؟

مـــررت كلـــتا يديها على خصلات شعرها القصير الذي طغى عليه اللون الرمادي، ثم قالت:

– كـــل شيء، كل شيء سيصبح ذكريات، جلستنا هذه، أنا، أنت، اليوم، هذه اللحظة، مسرحيتك التي تحكي لي عنها، تلك الفتاة الـــتي تتشاجر مع الرجل الذي تحبه، كل هذا سيصير مجرد ذكريات قد لا يعرف بها أحد.

fb/mashro3pdf

خفـــضت مارغريت رأسها، ونظرت إلى الطاولة لثوانٍ، قبل أن تقول وهي تضرب بيدها بخفة على يد يان الممدودة على الطاولة:

– أكمل ما كنت تحكيه عن مسرحيتك، أسمعك.

نظـــر إلـــيها يان، حدق في وجهها، في التجاعيد الرقيقة حول عينـــيها، في خَطّـــي العمر حول وجنتيها الشاحبتين، أحس كم هي هـــشة، وكـــم يحبها. هذه المرأة التي يراها الآن لا تختلف كثيراً عن البـــنت الخائفـــة في روايتها "العشيق"(*)... السنون التي باعدت بين زمن الكتابة والآن، لم تأخذ معها سوى خصوبة الجسد وحيويته، أما لمعـــان العيـــنين، اضطراب الروح، وارتعاش القلب أمام لمعة شهاب عابر، فما زال كما هو، في النواة الأعمق من ذاتها.

* * *

في صـــباحها الباكـــر هذا، تنظر زينب إلى سقف الغرفة التي تنام فـــيها. تتمدد في زاويته رقعةٌ مجعدة، تتساقط ذرات من الدهان الأبيض علـــى ســـريرها. تـــسمع صوت أمها، وهي تثرثر عبر التلفون –عن الحرب– مع أخيها الذي يقيمون في بيته الآن.

تذكـــرت أنها خلال الليل، وهي نائمة، قبل أن تغفو تماماً، سمعت صـــوت عزف بيانو، أحست أن الموسيقى تأتي من مكان مجاور، لكن العـــزف كان ينساب، ويتوقف، حتى خُيل إليها أنه غير موجود. لكن تلك الموسيقى ظلت تتسلل إلى سمعها طوال الليل، بخفوت، ثم بصخب.

لكنها الآن تسمع أصوات الأطفال النازحين في حديقة "الصنايع"، تـــرتفع وهم يصدحون بأغنية للمقاومة، ويرسمون على الحيطان بنادق وإشارات النصر. ومن النافذة تشاهد مذيعة من إحدى الفضائيات أتت لتسأل الأطفال وأهاليهم عن الحرب. "التهجير صار مادة إعلامية ينبغي

(*) "العشيق": من بين الروايات الأكثر شهرة لمارغريت دوراس.

fb/mashro3pdf

أن يعـــرفها العـــالم عن كثب ليساعد في إنهائها". هذا ما قالته زينب لـــصديقتها ساندرا حين كانتا في الحديقة تسألان الأمهات عما يمكن فعله لمساعدتهن. إحداهن طلبت وهي خجلى حبوب منع الحمل، فيما توسلت أخرى إليهما لتُحضرا سجائر لزوجها، امرأة ثالثة طلبت أوعية لطهي الطعام، وإبريقاً لتسخين الماء وغلي الحليب.

تلك تفاصيل صغيرة لم تكن لتنتبه إليها لولا الحرب.

نظـــرت زينب إلى المنضدة الصغيرة قرب السرير، كان هناك دفتر متوســـط الحجـــم، لون غلافه الخارجي أزرق، ومن الداخل خالٍ من السطور، صفحاته بيضاء تماماً، في ما عدا الصفحات التي كتبت زينب علـــيها بـــالقلم الرصاص، كلمات متداخلة تشبه الطلاسم التي يكتبها السحرة، لن يستطيع أحد غيرها حل شيفرتها، أحياناً تكتب في العتمة، وهي نائمة، ترسم الإشارات التي شاهدتها في الحلم كي لا تنساها حين ترجع إلى عالم اليقظة.

حـــين تكتب تكتشف مدى عزلتها داخل حلقة واحدة لن يوجد فيها سواها، تكتشف هذه العزلة في تشبثها باستمرار الكتابة. الكتابة لا تُدخلـــها إلى أي مكان آخر، لكنها تجعلها على تماسّ مع حلقة مجهولة. في هذا الشغف للتماسّ بين حلقتين، بين عزلتين، تحدث الكتابة، عندما تقتـــرب وتحس أن حلقة حديدها البارد تلامس حلقة أخرى، تمنحها شيئاً من الدفء.

ربما يكون البشر معزولين في حلقات تتفاوت أحجامها، لذا يبحثون عن الحب، وربما هم يعيشون من دون اكتشاف عزلتهم الحقيقية، ويظنون أن كل ما يقومون به من نشاط يومي مكثف، جدار ضد العزلة.

اكتـــشفت كـــل هذا في وقت مبكر، منذ حكايتها الأولى مع حامـــد. عرفت أن الأحاسيس الإنسانية تكون حقيقية في وقت ما،

fb/mashro3pdf

وفي مـــا بعـــد، بنسبة من النسب، بشكل أو بآخر، تتبدل. لا بد أن يحدث ما يوقف ديمومة أي استمرار، فقط كي تستمر الحركة الدائرية الأبدية للحلقة الأكبر. فالموت، والميلاد، والحرب، وكل هذا الرعب، والألم، والمـــسرات الـــصغيرة، بل ونقاط التلاقي، كلها تمنح الحلقة الكـــبرى ديمـــومة اســـتمرارها الـــتي تُنهي في دورانها كل الحلقات الأصغر.

لقد غيرتها هذه الحرب. كما غيرتها ليلة عيد الفصح الوحيدة التي حضرتها، ليلة العيد أدركتْ عزلتها. وفي الحرب عرفت أنها أكثر حرية وقوة.. الحرب اختبرت قدرتها على الفقد، هذا ما ستدركه في ما بعد. في الـــبداية خاضـــت اختبار الأشياء، ثم البشر، لكنها في الحرب أيضاً تعلمـــت التمسك بالناس والأحلام، ثم تعلمت ممارسة لعبة الاستغناء، التخلـــي عن كل ما صرفت ببذخ لجمعه، بروفة للرحيل، بروفة للفقد، ثم بروفة للموت أيضاً.

* * *

يان..

في لـــيلة عـــيد الفـــصح، ساندرا وفادي، كارمن ورجا، كانوا يكـــسرون قشرة البيضة الملونة عبر ضربها ببيضة أخرى. وحدي كنت أجهـــل طقوس الاحتفال بالعيد. وحدي، ولم أكن أعرف أني سأظل وحدي.

مـــدام تريـــز والدة ساندرا مشغولة بتجهيز الطاولة لتضع ديك الحـــبش. حين لَحتْ البيضةَ السليمة في يدي دعتني لأتبادل معها كسر البيض. كانت تنطوي على أمومة تفوق قدرتي على الاحتمال، تدفعني لأمرين: البكاء والاعتراف.

في تلك الليلة تذكرت أبـــي، أحسست بنشيج حاد في داخلي.

fb/mashro3pdf

بعـــد غـــيابه الطويل، كنت أحس أحياناً أنه يراقبني، من خلف زجـــاج الأماكن المغلقة، من داخل مصباح النور، ألمحه وأنا أجلس في المقعـــد الخلفي في السيارة، يعبر سريعاً، مبتسماً في وجهي، أراه أكثر وسامة وشباباً مما أذكره. أفتقده كثيراً، وأدرك أن عالمي شديد البرودة، وأن حاجتي للحنان المطلق هي التي دفعتني في طرق شتى. طرق مجهولة وعرة.

لكـــن الآن يان، في وقت الحرب، ربما لا يجدر بـــي التفكير في هـــذا الاتجاه، لكن الكلمات تعبث بذاكرتي كما لو أنها نتف من قطن كثير، منثور في كل الاتجاهات، في يوم عاصف جداً.

يان...

البرد هو مأساتي، البرد لا شيء سواه.

لا، لا، هـــناك أمر آخر يعذبني جداً -لكنه معطوف على البرد. تَخيُلي أنني فتاة أعواد الثقاب. "بائعة الكبريت" التي تشعل كل ما لديها من أعواد ثقاب صغيرة، ثم تموت متجمدة من البرد على الرصيف، قبل أن تجد حلاً لمأساة البرد.

لكن الآن، هناك حر، هناك حرب أيضاً. الحرب أكثر شراسة في زمن البرد. ماذا لو استمرت الحرب حتى وقت البرد؟

يان..

هل تعرف كيف يكون طعم الموت، هل أخبرتك مارغريت عنه؟

مارغـــريت عـــرفت الحرب، عرفت الموت والدمار بعمق، قبل أن تـــنأى بنفسها بعيداً عن الواقع. هل حدثتك مارغريت عن الماضي، أم إنـــك لم تعرف شيئاً أكثر مما يعرفه الآخرون. لكن هذا مستحيل، فقـــد أمـــضيت بـــرفقتها خمـــسة عشر عاماً، تكفي أن تكسر كل حواجز الصمت.

fb/mashro3pdf

جاءت الحرب عندما كنت أحضر لك هدية، دي. في. دي لفيلم (End of the affair). الفـــيلم الذي حكيت لك قصته ثلاث مرات. لكـــنك كـــنت مأخوذاً بصوت "أديث بياف" وهي تغني عن باريس، حنينك الأول.

لـــيس وزني الخفيف هو الذي يشعرني أنني كائن غير ثابت على الأرض، بـــل إحساسي المستمر أني كائن غير مرئي.. أحياناً كان من الممكن أن يصطدم بـــي أحد العابرين في شارع أيامي، ثم يتركني ويعبر مـــن دون كلمـــة "اعتذار" أو "أسف". هذا ما حدث أكثر من مرة، الذنب ليس ذنب الآخرين، تزداد قناعتي أني كائن غير مرئي. لكن الآن مـــن الممكن أن أموت، أن يتناثر دمي على الأرض، أن أكون رقماً في سلسلة الضحايا. هل سأتأكد حينها أني كنت مرئية، كنت حية، وكان لي جسد لم أعرف كيف أحبه؟

الظـــلال تمنحني قدرة أعمق على الإبصار، لذا أدرك أنك تعرف بقلـــبك ما أعنيه، كما كانت مارغريت تعرف بقلبها سبب إصرارك على البقاء معها.

الآن، في هـــذا الوقت المهددة أنا فيه بالغياب، تمنحني كتابتي لك يقيـــناً للـــبقاء. أقلـــب روايات محبوبتك وأبحث عن ظلك النحيل بين السطور، ثم أقرأ كتابك عنها، وأفكر هل حقاً "هذا هو الحب؟" (*).

* * *

تمـــنت مارغريت لو كانت متسولة غير مشغولة سوى بالبحث عـــن معـــيش يـــومها، أو غجرية غير مطلوب منها تذكر الأمكنة والوجوه والأسماء. أكثر ما يعذبها هو ذاكرتها الهرمة المثقلة بتفاصيل

(*) "هـــذا هو الحب": كتاب يان أندريا عن علاقته مع مارغريت دوراس، وقد كتبه بعد رحيلها.

fb/mashro3pdf

لا يمكن التخلص منها. منذ سنوات حين تدعو أصدقاءها من باريس إلى أمسية عشاء في منزلها، تظن أنها ستهرب من ثقل العزلة الكثيفة، لكن حين يحضرون، بعد أن يبدأ الصخب يطفو في المكان، وينتشر الأصدقاء في المطبخ والصالون، متنقلين بين البيت والحديقة، تجد نفسها أكثر عزلة، تجلس في مقعدها ذي الغطاء البيج المشجر بألوان من البني والكريم، تتكئ على هذا المقعد وفي يدها كأس من الويسكي المثلج، هي وكأسها، منذ سنوات معاً.

يان... يان أندريا، "يا له من شاب ذي عينين مشعتين ووجه فيه براءة شاحبة". تردد هذه العبارة في داخلها وهي تلمحه يتحرك بين الضيوف، ويبتسم لها من بعد وهو يدير جهاز التسجيل على موسيقى تحبها، ثم يتجه نحوها ليمسكها من يدها ليرقصا معاً. كان ثلاثة من الأصدقاء يناقشون سياسة ميتران، بينما صديقتها، إيرما الصحافية التي بلغت الخمسين قبل شهر، تشاركهم الحديث بحماسة شديدة عن السياسة الجديدة لحزب العمال. تطوف نظرات مارغريت بينهم فيما يد يان تحيط بخصرها، تحس كم هي بعيدة عنهم، ليس هناك ما يدفع الحماس بداخلها لأي مشاركة في الكلام، تود الاستماع بصمت، تود الرقص أيضاً بين ذراعي يان.

هي وهو يشكلان لوحة غريبة، لوحة عبثية مجنونة، تكسر كل الأفكار الثابتة عن خطوات الحب، والسن، والزمن. في العلاقة مع يان، كما في العلاقة مع جسدها، لا تنتظر سوى عطاء آنياً، آنياً فقط. بينها وبين يان لا يوجد سوى "الآن" بل "الآن فقط". ماذا تريد أكثر من ذلك؟ لو حدثت معجزة استمرار "الآن"، سيحصل الكثير من الفرح، لكن هذا لن يحدث لأن الزمن يمضي، لأن الأصدقاء سيذهبون، وهي مع مرور كل يوم ستكبر يوماً. ويان

fb/mashro3pdf

أنـــدريا أيضاً سيزداد توهجاً قبل أن يبدأ بالأفول، هو أيضاً سيكبر مـــثلها، هو أيضاً سيرتكب جسده نحوه خيانات مختلفة. إنها معادلة الـــزمن الأبدية؛ نتقدم كي نصل، نتوهج كي ننطفئ، نكبر كي نموت، نحن محاصرون بهذا الرعب رغماً عنا، ولا نملك أمامه أي سبيل للنجاة. لو منحها جسدها بعض الصمود، الوقوف عند حد معين من الخسارة، يمكـــنها أن تـــستمر أكثر، وأن تكتب أكثر. الكلمات لا يصيبها الهرم، لـــديها الكـــثير لتقوله، كتابتها ما تزال فتية وقادرة على الحياة بنشاط وســـط هـــذا الركام. الكتابة هي الشيء الوحيد الذي ظل معها طوال الوقت... طوال الوقت، وفي كل أنواع الأحزان والمسرات.

تذكـــرت عبارة دانيال حين كان يقول لها: "إن ميزة الحياة في قدرتك على رؤيتها من أكثر من وجه، وإيجاد أسباب دائمة للفرح". كانـــت تقاطعه لتقول: "وأسباب للحزن أيضاً". يتمم عبارته المبتورة قـــائلاً: "فرح وجودك في الحياة، ثم فرح استمرارك بها كل يوم شيء عظيم".

* * *

حين فتحت زينب زجاج النافذة صباحاً، كانت تراقب استمرار الحياة عن كثب. أبصرت خيام النازحين، وقطعاً من ثيابهم معلقة على أغصان الشجر، امرأة تطبخ على بابور الكاز، وبنت صغيرة تبكي لأنها صـــارت ترى العالم بعين واحدة، ولا تقدر على لمسه لأن الحروق تملأ يديها.

هي أيضا تنتمي إليهم لأنها مهجرة، لكنها أكثر حظاً، هي تسكن في بـــيت وإن كان مستعاراً، بيت فيه جدران، وسقف، وباب مغلق. هكذا لا تكون مضطرة للبحث عن ماء للشرب، أو للمبيت في خيمة، والاستحمام سراً.

fb/mashro3pdf

لما نـــزلت من البيت سارت من "الصنايع" نحو "شارع الحمرا". كانـــت تنظر إلى واجهات المحلات المغلقة، وتفتقد زحمة السير المألوفة. الـــشوارع شبه خالية، وهي ستذهب لرؤية ساندرا التي تسكن في أحد الـــشوارع الفرعية من شارع "الحمرا". شعرت بالحر وقطرات عرقها تتسرب من صدغيها لتبلل حجابها الأبيض. لم تكن تضع على وجهها أي نـــوع مـــن مساحيق التجميل، حتى شفتيها كانتا جافتين من أثر الحرارة.

بـــدت لهـــا الطـــرقات موحشة جداً، تعبق فيها رائحة البارود، الـــشمس ساطعة، لكن هناك غيم ثقيل أسود يسيطر في حضوره على فضاء بيروت. "شارع الحمرا" الرئيسي شبه فارغ، في ما عدا أشخاص مثلها، مدفوعين للمضي حتى في أيام الحرب، باحثين عن شيء ما. لكن هي عم تبحث؟ لماذا ترغب في السير طويلاً بلا هدف؟

صـــوت القذائـــف، غير البعيدة، يدوي بقوة، تاركاً اهتزازاً في الشارع، على الجدران، على الأرض، وفي الهواء الجامد. وجوه العابرين تنقبض، تسيل ألوانها لثوان عدة، كما لو أنها في لوحة رسام قرر فجأة تبديل السكون بالعاصفة.

في الـــشارع الفرعـــي عند مطعم "بربر" لم يكن هناك أحد أمام واجهة المحل الذي يكون مكتظاً عادة بالسيارات والمارة، الآن لا يوجد فيه سوى عدد قليل من العمال، يبدو أنهم متواجدون إما للضرورة، أو للفـــرار مـــن حصار الحرب الممل. وحدها القطط تتحرك بحرية، وبلا خـــوف أمـــام القمامة الملقاة على الرصيف. وبينما هي تعبر الشارع سمعـــت صوتاً رجولياً تميزه جيداً ينادي باسمها، حين التفتت إلى الخلف رأت د. عـــبدالله يقف قرب الرصيف، ويستعد لعبور الشارع. اقترب وصـــافحها وهـــو يشد على يدها، ويلامس ذراعها بيده الأخرى، في

fb/mashro3pdf

حـــركة حاول أن يحملها كثيراً من المودة، أو ما يشبه الاعتذار. كانت تنظر إلى قامته الطويلة بشيء من الدهشة لرؤيته في مثل هذا اليوم، وفي هذا المكان، أحست في عينيه انكساراً لم تفهمه، لكن حين أخبرها أن البـــناية الـــتي تقـــع فيها شقته قد سقطت بالكامل، لم تحس نحوه بأي تعاطـــف، غلـــب عليها إحساس مبهم لم تتمكن من تفسيره، ربما لأن تلك الشقة التي تعرفها جيداً قد زالت الآن عن سطح الأرض، و لم يعد لهـــا وجود. ليس هناك باب شاهد على أنها كانت تجلس على عتبته، وهـــي تعـــرف أن صاحب الشقة في الداخل، لكنه يتركه موصداً في وجههـــا حـــتى يروق له أن يفتحه، وأحياناً لا يفعل لأن امرأة أخرى تكون برفقته. الآن لم يعد هناك جدران تشهد على الاهانات التي تلقتها يـــوماً لسبب ما لا تجد له اسماً، كما لم يعد هناك سرير غريب يحتوى جـــسدها إلى جانـــب جـــسد رجل كانت تحس أنها تتلاشى تماماً في وجوده. ما بقي الآن هو رجل مهزوم، يشكو لها وحدته، وتهدم شقته، ويقترح عليها رفقته من جديد.

كـــلام، كلام، تسمعه، وتفكر بكل ما تعنيه له تلك الشقة التي تـــشبه متحفاً للأصنام، للكتب، للّوحات، للتحف، لا للحياة. تذكرت كـــيف كان يمنعها من قراءة الكتب الموجودة في المكتبة، خشيةَ أن تغير ترتيب الكتب، وكيف اكتشفت أن كتبه عذراء تماماً، كتب وضعها في مكتـــبة كبيرة لأنها جزء من الشكل الاجتماعي الذي ينبغي أن يكون علـــيه. تذكـــرت اللوم والصراخ الذي انهال به عليها يوم سقطت من يـــدها تحفة تمثل امرأة إفريقية. كان التمثال الصغير لتلك المرأة أعز عليه منها هي بكل ما تحس به من وله أحمق نحوه.

وهي تنظر إلى عينيه الزرقاوتين، وشعره الرمادي، هالها كم تختلف المـــشاعر مع مرور الوقت، فكرت أنها في وقت ما كانت ترتجف من

fb/mashro3pdf

لمسة يديه، تتلقى خيانته وإهاناته من دون أي ردة فعل سوى الاستسلام، كانت تخاف أن يطردها من جنته لو اعترضت على تصرف يقوم به. لقد عاشت عامين مريضة بوهم الحب الكبير، وهم أستاذها الجامعي الذي تحلم به كل الطالبات، فيما هي الوحيدة التي حظيت بشرف زيارته، والمبيت في سريره. عامان من عمرها انقضيا وهي تنتظر اتصالاته المرتهنة لرغباته فقط، قد تحصل كل يومين، أو كل أسبوعين، أو كل شهر، فيما هي تنتظر. كانت مريضة به إلى الحد الذي يمنعها من الاعتراض.

الهواء محمل بسخونة ثقيلة عالقة بين الأرض والفضاء المفتوح، اللون الأزرق البعيد للسماء بدا بريئاً جداً، ونقياً، لا علاقة له ببارود القذائف، ولا بحكايات الوله الحاد مثل سكين باردة، مرورها على الجلد لا بد أن يسبب جرحاً. عيناها السوداوتان مثل عيون السناجب، تختزلان التفاصيل الصغيرة، لكن زينب تمضي في سماع كلمات لا تمتّ للزمن الحاضر، كلمات تعود لوقت العاصفة الشديدة التي هبت عليها ذات وقت.

الحوار الذي تبادلاه، كان عن الحرب أيضاً، حكى لها أنه يسكن في شارع "الجامعة العربية"، في شقة استأجرها منذ يومين، دعاها لزيارته بحرارة وهو يصف لها العنوان، ثم راح يسألها عن أحوالها، وعن مكان إقامتها الحالي. ردت على أسئلته ببساطتها المعتادة في التعامل معه، وفي التعامل مع الحياة، من دون أن تتطرق لجزئية الزيارة الموعودة.

بعد أن عبرا الشارع معاً، سار كل منهما في شارع فرعي، كانت تبكي وهي تسير نحو بيت "ساندرا"، خيالات تلك العلاقة تعبر أمام ذاكرتها التي لم تشْفَ تماماً من ندوب تلك الجراحات. تذكرت

fb/mashro3pdf

مازن أيضاً، كيف ساعدها على الخروج من شقة الأصنام التي دخلت في متاهتها، وتذكرت كيف سببت له ألماً كبيراً في عدم اتخاذها موقفاً واضحاً نحوه. مسحت دموعها بطرف بلوزتها الطويلة، وهي تتخيل أنها ربما تكون تسببت لمازن بالألم نفسه الذي سببه لها د. عبدالله. لكن حكايتها مع مازن كانت مختلفة تماماً. لقد أحبها مازن بأسلوب مغاير. أحب روحها المضطربة، واحتواها بكل ما فيها من جراح وحروق.

تلمع أمام عينيها الطريق الرئيسية المرصوفة بحجارة مربعة. في عينيها دموع متجمدة، وفي صدرها شهقة كبيرة مكبوتة. تتابع سيرها بخطوات سريعة، لم تلتقِ سوى رجلٍ عجوز يأكل منقوشة في الشارع، وشبّان بدا أنهم من سكان المنطقة، أو أنهم وافدون مثلها. أصوات القذائف التي تسقط على الضاحية الجنوبية تهز سكون الشارع المقفر تقريباً، فيما عدا مقهى إنترنت عند زاوية شارع "جاندارك" مزدحم بشبان وفتيات يضعون السماعات حول آذانهم، ويُجْرون محادثات عن الحرب والحب، عن المدينة التي اشتعلت بين ليلة وضحاها. كانت محلات الورد مغلقة في الشارع. سكون ضبابي يغلف المكان بطبقة غير مرئية، في الحروب لا يفكر الناس بالورود. صعدت زينب ثلاثة طوابق نحو بيت ساندرا، كانت الكهرباء مقطوعة. استقبلتها مدام تريز بابتسامتها المعتادة التي تشبه نقشاً على قلادة. كانت زينب تتعجب من قدرتها على الابتسام في أسوأ الظروف. ربما هذا ما يعنيه الإيمان الحقيقي، أن تقْدر على منح الحب بالمطلق، من دون تأثر بالأحوال الخارجية للعالم. عندما جلست زينب على الكنبة وسألت عن ساندرا، عرفت أنها غير موجودة، وأنها ذهبت مع مجموعة من الصحفيين إلى "الضاحية الجنوبية"، كي تلتقط صوراً لما فعلته الحرب بالمكان. أحست

fb/mashro3pdf

بقـــشعيرة باردة، واجتاحتها رغبة بالبكاء لم تقاومها، لكنها قاومت رغبـــتها بالتدخين. كانت تتكلم مع مدام تريز عن الصور المتلاحقة في ذهـــنها، عن البيت الذي تركوه، عن أبيها الذي يلوح لها مبتسماً من مكان بعيد، عن د. عبدالله الذي التقت به في الشارع منذ قليل، وعن أمهـــا التي تنتظر عودتها كي تحضر معها أغراض البيت. حكت أشياء كـــثيرة، ثم استمعت لمدام تريز تحكي لها بهدوء حكاية الراهب البوذي الذي كان معتقلاً عند الصينين، ثم بعد خروجه من السجن سأله راهب آخر: "ما أسوأ ما تعرضت له في سجنك؟"، فأجاب: "أن أفقد تعاطفي مع جلادي".

وهي تسير عائدة إلى البيت كانت تفكر بعبارة الراهب وبالقدرة على التسامح، فكرت في أنها ما تزال عاجزة عن نسيان الندوب المؤلمة. لو كانت قادرة على هذا، ربما ستتعامل مع أمها بطريقة أفضل، ستنسى التفاصيل الماضية التي تقوم بينهما مثل جدار عازل.

* * *

يان..

قطعـــوا أغـــصان شجرة التوت. انـــزعج منها الجيران في المبنى المجاور لبيتنا. أوراق "التوتة" العريضة ترتفع لتطال شرفتهم، قطعوها و لم يتركوا منها إلا جذعها الذي يصل طوله إلى متر ونصف المتر تقريباً. لم أعـــرف كيف بإمكانهم ألاّ يروا القفر الذي يسببه غيابها عن الشارع. ظـــل انـــزعاجـــي مكتوماً وتتالت الصباحات على شرفتي مع غياب "الـــتوتة". لم أخمن أن هذا الغياب كان يخفي وراءه بتراً آخر، ويقف على تخوم الاقتلاع من الجذور.

لم يكـــن هـــناك ما ينبئ أننا بعد أيام سنُصبح مثل شجرة التوت المقطوعة الأوصال، أوراقنا مقصوصة وملقى بنا إلى الخارج.

fb/mashro3pdf

وكمـــا لـــو أن وحشاً عملاقاً، يضع يده الضخمة عند كاحلي، يهـــزني من تربتي، يقتلع جذوري، ثم يلقي بـــي الى الأرض، ويقهقه ساخراً حتى تهتز الجبال.

كيف لم أعرف أن الصباح لن يأتي بعد أن قطعوا "التوتة"، وأن لا نـــور حقيقي في السماء. السماء التي بدت سوداء ومؤلمة، ثقيلة، تجثم على الصدر.

كيف لم أعرف أن الصباحات على شرفتنا كانت حلوة، وكيف لم أصدّق ابنة جيراننا "ريم" حين قالت لي إنها تحب بيتنا صباحاً! كنت أجيـــبها بلامـــبالاة: "ليه... بيتنا عادي جداً.. يشبه كل البيوت". لِمَ كـــنت أســـتمع لأمـــي بكسل وهي تحكي لي عن أشهر الصيف التي ستمضيها في زحلة.

لماذا كنت ملولة إلى ذاك الحد من بنات الجيران حين يجتمعن حول "أم حـــسن" لتقـــرأ لهن الطالع، وتفسر مدلول الإشارات ورسوم بقايا القهـــوة. "أم حسن" التي تستمد وجودها بينهن من مدى قدرتها على التنـــبؤ بالعـــريس أو الوظيفة أو الغيمة البيضا، أو العصفور "اللي رح يجيب خبر حلو".

يان...

آخـــر الـــصباحات على شرفة بيتنا كانت فيها ضحكات صبايا يجـــتمعن حول كعكات كنافة، مناقيش زعتر وجبنة ولحمة بعجين... أدري أنك لا تعرف كل هذا، وأن كل حكاياتي قد لا تعني لك شيئاً، فأنت لم تر بيروت إلا مرة واحدة، ولم تعرفها من قرب، لم تكشف إلا وجهاً واحداً لها. لم يكن هناك وقت لآخذك من يدك لتكتشف وجوه المدينة الكثيرة، وتختار أياً منها يناسبك. سأحاول أن أفعل هذا الآن.

هل كل مدينة لها وجوه عدّة؟

fb/mashro3pdf

في صـــباحات الآحـــاد كنت أختصر تلك الجلسات الحميمة وأراهـــا مضيعة للوقت.. من دون تخمين أن كل تلك الألفة وذاك الدفء سيتشتت شمله... كنت أضحك من ابنة الجيران "وفاء" التي تنتظـــر العريس، وخلال رحلة الانتظار تعبئ وقتها بالطعام اللذيذ، "وفاء" التي لا تكترث بوزنها، بل تقدم لك كلما التقيت بها جدولاً بأفـــضل المطـــاعم ومحلات الحلوى، ثم قبل مغادرتها تترك في يدك قطعـــة شوكولا "باتشي". شُردت "وفاء" من منـــزلها كما حصل لـــ "أم حسن". أعرف أخبار وفاء عبر الهاتف، أما "أم حسن" فقد انقطعـــت أخبارها لأنها لا تؤمن بالتكنولوجيا ولا تستعمل الهاتف النقال.

كـــثيراً ما تخيلت أن كل الاشياء باقية، لكن هذا لم يكن صحيحاً لأن الأشياء تتعرض للغدر أيضاً. وها أنا الآن في مكان آخر، في مكان لـــيس غريباً، ولا أليفاً. وفي الليل أظن أني أسمع صوت عزف بيانو في العـــتمة، وكلما سرت في العتمة أكثر، ازداد ارتفاع صوت الموسيقى المجهولة. وفي الأعلى ترتفع أصوات القذائف.

البارحة، كان النهار طويلاً ومرعباً، أخبار الحرب في كل مكان، لا يمكن الهرب منها. أشمّ رائحة بيروت، تعبق بأنفي رائحة تتجمع فيها عصارة كل الحروب التي مضت، وها أنا الآن من ذاكرتي الواعية هذه، أصير جزءاً متشابكاً مع الحدث. نكتشف أننا من الممكن أن نعيش مع الخراب، مع خراب المدينة، وخراب الجسد.

هـــل ستحكي لي يوماً عن جسد مارغريت، عن رؤيتك لهرمه، لخرابه!

أود أن أحكي لك عن التلف الذي يتجمع طوال هذا الوقت تحت سطح مدينتي، بيروت التي هرمت وتخربت أيضاً.

fb/mashro3pdf

في الليلة الماضية كان علي أن أنام قليلاً، وأن أحس ببعض السكون لأني أنام تحت غطاء رقيق، لونه أخضر فاتح. لم أنم، رغم أني ألقيت الغطاء الأبيض بعيداً واستبدلت به الأخضر، لا أحب الأغطية البيضاء، تذكّرني بالموت، لكني أحب قميصك الأبيض.

لكن ما علاقتك أنت بكل هذا، وما الذي يعنيه أن تصل رسائلي إليك أو لا تصل؟

ما الذي يعنيه أن أكتب هذه الرسائل، هل هذا مهم حقاً؟

يحدث لي بشكل دائم أن ينحرف بي التفكير بعيداً، نحو تاريخ آخر، وقصة حدثت في مكان بعيد عن بيروت، في مكان يبعد ساعتين عن باريس. لأي الأسباب أتتبع قصتك معها بما أن كل الأشياء تزول في النهاية؟

* * *

مارغريت لم تعد تفكر في الكتابة عن الحروب التي تتذكرها، ولا عن الأطفال الذين فقدوا أطرافهم في أتونها. بل تريد توثيق موت عابر عرفته، موت عايشت لحظات نزاعه مع الحياة، موت هامشي ستنقله على صفحات كتابها، لأنها تراه مهماً. إنه موت ذبابة زرقاء كانت نهايتها عند حافة النافذة، تلك الذبابة كان دانيال هو السبب في قرارها أن تكتب عنها، أن تؤرخ لموتها، لانتهاء حياة الذبابة، ولزوال جزء من الزمن. هي التي يعذبها وعيها المستمر بزوال هذا الزمن مع مرور كل دقيقة، لو لم تَرَ العطف الذي تعامل به دانيال مع الزر المكسورة، لم تكن لتفكر بموت هذه الذبابة أبداً.

دانيال أو داني – كما تحب مناداته، هو الرجل الوحيد الذي كانت تكتب خلال وجوده، كان يمارس التأمل وهي تكتب، يصنع لها شراب البابونج الساخن، ويستمع لإحدى مقطوعات باخ. كان

fb/mashro3pdf

داني حكـــيماً صـــوفياً لا تعرف متى يظهر، أو يختفي، أو متى يسافر للقـــاء معلمه في الهند. حضوره في حياتها يكاد يكون طيفياً، غموضه يـــدفعها للـــشك في حقيقته. اليوغا جعلت جسده مشدوداً، وحين تلامـــسه تجـــده ليناً. حين عرفت بموته أشعلت شمعة وبخوراً، وبكت كثيراً عند حافة النافذة، ثم شاهدت شبحه منحنياً عند شجرة الورد الصغيرة التي نمت في غيابه، بدا كما لو أنه يتفحص أوراقها. لوح لها بـــيده ضاحكاً، ثم غاب مبتعداً. إنها الضحكة التي تعرفها جيداً، لقد شاهدتها من قبل في غيبوبتها الطويلة. كان داني يحزن حين تنكسر زر عن جسد معطف. مارغريت تقول: "الزر المكسورة"، وكان يقول: "الزر التي فقدت نصفها". تعلمت مع داني كيف تتحول الأشياء إلى أرواح. كـــان يمـــسك ســـبابتها ويضعها عند فتحات مرور الخيط الموجـــودة عـــند الجزء المعلق من الزر، ويقول لها: "هذا الجزء يحس بالحزن على الجزء الذي فقده".

يذكـــرها يـــان أنـــدريا بداني، ثمة تشابه بينهما لم تتمكن من اكتشافه، ربما تلك الابتسامة الهادئة، أو الرغبة في التواري، نعم ربما هـــذه هـــي الصفة المشتركة بقوة بينهما، كلاهما لا يحب الضوضاء، ويتعامل بخجل مع الأشياء، كلاهما حنون، وقادر على العطاء بمحبة، مـــن دون الاحتماء بالصبر. أما هي فكانت قوتها النـــزقة التي يراها الآخرون حادة مثل عاصفة، كافية أن تبعد عنها أي شعور بالارتباك أو الرغبة في التواري، هي الآن لديها إحساس بالحاجة للعزلة، العزلة بعيداً عن أي أحد، فقط كي تكتب. وهنا في بيتها هذا، تنكسر هذه العـــزلة بـــــ أصـــوات الأطفال الذين يركضون قرب بركة الماء، يتراشـــقون بالتراب وعصي الأشجار والحصى الصغيرة، لكنها حين تـــراهم تجـــد نفسها منجذبة إلى تأمل ضحكاتهم، وتدافع طفولتهم

fb/mashro3pdf

الفائـــضة. كانت تحس أن تلك الطفولة تسير إلى التناقص يوماً بعد يـــوم، ولـــن يلبث هؤلاء الأطفال أن يكبروا بسرعة ليجلسوا على الشرفات ويشاهدوا اندفاع أطفال آخرين مكانهم. كان هذا التفكير الحلزوني، يدخلها في متاهة لا تؤدي إلا لمزيد من الجدل حول فكرة الزمن ووهم الغايات، وحول أيامها التي تمضي بسرعة، فيما الشغف يرهقها لإنجاز ما لم تتمكن من كتابته بعد. ثمة فوضى عابثة تسري في دمهـــا، تـــدفعها للثورة على فكرة "الوقت"، وتسحبها نحو تفاصيل ماضية وأليمة، لم يتشارك معها أحد في إعادة ترتيبها.

* * *

الـــوقت الـــذي تمضيه زينب في صياغة التفاصيل، يكون مغموراً بكـــل أنـــواع الالتباسات والأسئلة التي لا تكتمل لأنها تحمل شكاً. في تلك الأثناء يبدو هاجسها الأول التحرر من سيطرة جسدها الذي تحس بـــثقله، والاستـــسلام الكامل لحالة من الوعي المفتوح على احتمالات شتى.

كانـــت الـــساعة الأولى مـــن الصباح، وهي تجلس قرب نافذة الصالون تنظر إلى الشارع الغارق في ظلام خفيف. بعد قليل سيستيقظ العـــالم، وستعود هي إلى كل الأشياء الأخرى التي تأخذها من دائرتها الأولى. لكن في هذه اللحظات تبدو لها المدينة كما لو أنها مغلفة بغشاء شفاف، أثيري، لا تقدر الحرب على اختراقه.

في ســـاعات الفجر نسيت أن هناك حرباً، غابت عن ذهنها تلك الحقـــيقة المـــرعبة في غمرة انشغالها بالبحث عن الخيوط المفقودة، حتى اللحظـــة التي سمعت فيها صراخ امرأة يشق صمت الشارع إلى نصفين، صـــوت لم تتبين مصدره وهي تنظر من النافذة. لكنه تكرر كما لو أنه مـــناداة على أحد ما. كانت المرأة تتوقف لثوان كي تلتقط أنفاسها، ثم

fb/mashro3pdf

تستأنف الصراخ في همهمات غير واضحة، لكنها في الغالب تحمل نداء ملتاعاً.

قـــررت زينب النـــزول إلى الشارع، استبدلت بثياب نومها زياً رياضياً ترتديه في الأحداث المفاجئة أكثر مما ترتديه للسبب الذي اشترته من أجله. وضعت غطاء رأسها، ثم نـــزلت الدرج بسرعة.

بعد أن غادرت المبنى، وحين نظرت يميناً، وجدت امرأة وحيدة، تجلـــس على الأرض وأمامها بعض الحاجيات الملفوفة على شكل صرة كـــبيرة، ربما تحتوي ثياباً أو أغطية للنوم. عرفت زينب على الفور أن هذه المرأة مهجّرة من الجنوب، وربما تكون وصلت تواً من ضيعتها إلى بيروت. كانت نحيلة جداً، ترتدي تنورة سوداء طويلة وواسعة، وقميصاً أزرق بأكمام طويلة، بدا أنه قميص رجل. كما كانت تضع غطاء رأس أســـود. وجههـــا أسمر جاف وفيه حروق من أثر الشمس، وخطوط تجاعـــيد واضحة عند الجبهة. تتالت عبارات المرأة وهمهماتها عن ابنها الـــصغير الذي ضاع بعد أن وصلت بيروت. أشارت بيدها إلى مدخل المبنى وهي تحكي لزينب أن قريبها يعمل ناطوراً في هذه العمارة، وأنها وعائلـــتها هربوا ليلاً مع جيرانهم، كانوا منقسمين على سيارتين، الأب والولدان وخمسة ركاب آخرين معاً، أما هي وابنها الصغير ذو الأعوام الـــسبعة فقد حُشروا حشراً في سيارة أحد أبناء المنطقة كي يصلوا إلى بـــيروت. كانت اتفقت مع زوجها أن يلتقوا هنا – أشارت إلى المبنى بـــيدها – لكن حين وصلت لم تجد قريبها، كما أن زوجها وولديها لم يصلوا، غفت هي وابنها عند مدخل المبنى، وحين فتحت عينيها لم تجد الطفل.

سارتا معاً في الشارع بخطوات واسعة، مجهولتان، كلتاهما مجهولة تماماً عند الأخرى، لكنهما في هذه اللحظة بدتا متقاربتين جداً. كانت

fb/mashro3pdf

زيـــنب تفكر في ما تفعله الآن، وهي تسير مع هذه الأم التي تبحث عن ابـــنها الـــضائع. كانت تنسج احتمالات عما يمكن أن يحدث! طفل ضـــائع، وزوج وولـــدان مجهـــولا المصير، وامرأة لا تكف عن إطلاق لوعاتها وتوقعاتها المريرة، وجمل متفرقة عن الحرب وما تفعله.

تلاشـــت غلالـــة الهدوء أمام ضوء النهار الذي بدا قوياً، ينعكس علـــى زجـــاج السيارات التي تعبر مسرعة. وقفت زينب قرب مدخل "حديقـــة الـــصنايع"، وأوضحت للمرأة أن عدداً كبيراً من العائلات المهجـــرة يقيمون في الحديقة، وأن الطفل من الممكن أن يكون سار إلى هـــنا، واصطحبه أحد الأهالي إلى الداخل. عندما تقدمتا خطوات إلى الحديقـــة التي بدت مزدحمة بالخيام المنصوبة قرب الأشجار، وبالغسيل المنشور هنا وهناك، وبحاجيات المعيشة الأساسية المنتشرة على الأرض، اقترب منهما رجل طويل، أشقر، ذو لحية خفيفة، ومعه شاب مراهق، سألهما عما تبحثان. سارعت زينب لسرد القصة باقتضاب بينما صوت المـــرأة يرتفع في نبرته عن صوت زينب وهي تحكي تفاصيل عن شكل ابنها، وطوله، وما يرتديه من ثياب. مسح الرجل على لحيته وهو ينظر إلى الشاب المراهق الذي معه ويقول له: "ولك يا حسين، كأني سمعت خالـــك نجيب بيقول إنه لاقوا ولد ومش عارفين مين أهله، نط شوف وينه".

اختفى الشاب المراهق عن الأنظار، أما المرأة فقد ارتفع صوتها في مـــزيج مـــن الدعاء والندب، فيما الرجل يتمتم عبارات متقطعة مثل: "طـــولي بالك يا أختي، الله الحامي، اللي خلاه يوصل لهون وما يصير له شي بيرجعه لحضنك بالسلامة".

بعـــد مرور دقائق بعمر دهر، ظهر الشاب المراهق متجهاً نحوهم وهـــو يمـــسك بـــيد طفل معه، عرفت زينب أن هذا الطفل هو الابن

fb/mashro3pdf

المفقـــود، فقـــد انتابتها قشعريرة والأم تندفع راكضة نحو الولد تعانقه، وتتحسس جسده، ثم تحمله قليلاً بين ذراعيها قبل أن تمسك بيده وتسير نحـــوهما. ابتسم الرجل بفرح، وراح يتمتم بعبارات أخرى: "حمد الله على سلامته، انتبهي عليه، هالمرّة الله ستر ووصل لهون... المرّة الجاية ما بتعرفي شو بيصير".

ســـارت زينب مع الأم وطفلها، كانت تحس بفرح أيضاً من سير الأمـــور بهذا الشكل. الأم تمسك الطفل في يد، وصرة حاجياتها في اليد الأخـــرى، وزيـــنب تستمع إلى تبدل نبرة الأم في حديثها مع الطفل، كانـــت تعاتبه على فعلته، كيف إنه استيقظ وغادر وحده نحو الشارع المجهـــول. ابتـــسمت زينب في سرها وهي تتخيل أن الطفل لديه رغبة الاكتشاف لكنه لا يملك وعياً عن اختلاف الأماكن، وأنه قام بما يقوم بـــه عادة في بيتهم في الضيعة، سار خطوات في الجوار إلا أن خطواته وصـــلت به هذا الصباح إلى حديقة المهجرين، وهو لا يعي أن ما فعله فيه أي خطر.

حين وصلوا إلى مدخل المبنى، وجدت زينب من الصعوبة أن تترك الأم والطفل في الشارع، لكنها لم تحسم أمرها بدعوتهما إلى البيت، إلا أن الأم بادرتها بالسؤال عن فرن قريب يبيع المناقيش، عرفت زينب أن المرأة جائعة، فطلبت منها الصعود معها إلى أعلى.

السكون يخيم على البيت، ما زال الجميع نائمين. الستائر تحجب الشمس، والكهرباء المقطوعة ساهمت في تكثيف العتمة. حين جلست المرأة وطفلها في الصالون بدا عليها الارتباك والخجل وهي تجول بعينيها في الأثـــاث الفخم، وحين عادت زينب ومعها صينية الطعام، كررت المـــرأة توجيه الشكر لها لمساعدتها على إيجاد الطفل، ثم بادرتها بالسؤال عن هويتها، وإن كانت من سكان منطقة "الصنايع". حكت لها زينب

fb/mashro3pdf

أنهـــا وعائلـــتها مهجرون أيضاً من "الضاحية الجنوبية"، وأن هذا بيت خالهـــا. ظهر على وجه المرأة شيء من الارتياح، كما لو أنها أحست بتقارب مع زينب.

بدا على المرأة أنها لم تتناول طعاماً منذ ساعات طويلة، أما الطفل فكـــان يـــبدو عليه النعاس وهو يرفض الأكل ملتصقاً بأمه. لكن المرأة توقفت عن الأكل حين تقدمت والدة زينب إلى الصالون خطوات عدة تستكـــشف هوية الحاضرين، وحين تأكدت أنها لا تعرفهم، ألقت تحية مقتضبة وانسحبت إلى الداخل وهي تنادي على ابنتها. أحست زينب بالارتباك، سارعت نحو المطبخ حيث تقف أمها، التي انهمرت بأسئلتها عن المرأة وابنها.

كانـــت كلمات الأم لزينب كافية لإنهاء الموقف. وقبل أن تعود زيـــنب إلى الصالون كانت المرأة تقف هي وابنها مستأذنة بالانصراف، إذ علـــيها الـــبحث عن زوجها وولديها. سلّمت على زينب بحرارة، وكررت شكرها، حاولت زينب أن تعرض عليها المال، إلا أنها رفضت باصـــرار، وســـارعت في نـــــزول الأدراج المظلمة مع ابنها، وصرة حاجياتها.

ألقت الأم نظرة مقتضبة على صينية الطعام الموضوعة في الصالون، ثم سارت إلى الداخل وهي تحمل صينية القهوة، بعد دقائق حين عادت الكهـــرباء طلـــبت الأم مـــن زينب أن تقوم بتشغيل التلفزيون لتسمع الأخبار وجديد الحرب. لم تعاود زينب الحديث عن المرأة المهجرة، ولا عن ابنها الذي ضاع، كما لم تطرح الأم أي سؤال إضافي على الأسئلة التي طرحتها في المطبخ.

كلتاهما جلست في صمت، الأم أمام التلفزيون، والابنة أمام جهاز الكمبيوتر قرب النافذة. حين نظرت زينب إلى أسفل شاهدت الشارع

fb/mashro3pdf

مختلفاً عنه في الصباح الباكر، رجل عجوز يتبول قرب عامود الكهرباء، شبان يعبرون بالموتيسكلات بسرعة، سيارات محملة بأشخاص كثيرين، وحاجـــيات، وسيارات أخرى ترتفع منها أغنيات عن الحرب، وتبدو محملـــة بغالـــونات ماء وأطعمة، بفرش، وبطانيات. وجوه كثيرة تعبر الشارع تستقبل يوماً جديداً من أيام الحرب. يوم تؤكد هويته أصوات القذائف المتساقطة في مكان لا يبعد كثيراً عن هذا المكان.

* * *

يان...

أنـــت تغفو في مكان بعيد.. في مدينة لا تعرف الحرب. بإمكانك أن تجلـــس علـــى الرصيف وتشرب قهوتك وتقرأ الصحيفة، وتتأمل العابرين.

أعـــيش في مديـــنة لم تنـــته بعـــد مـــن مسح الدم المتخثر من حـــروب ســـابقة. هناك مدن ممسوسة بالحرب، أدمنت الدم، ورائحة البارود.

في هذه الساعة من الليل الثقيل، أرغب أن أرتدي رأس إله لأبتدع تـــصاميم جديدة للثقوب السوداء المحفورة في داخلي، أن أحل الخيوط المتعثـــرة من جديد، وأزرع زهوراً حقيقية يداعبها نسيم الفجر، زهوراً تنام على جلدها الرخو فراشة تحلم، فراشة غير خائفة ولا يرعبها وجود أقدام جنود أعداء على الأرض.

أرغب أن أرتدي ذاكرة إله لا تعلك تلك السنوات التي لن تسقط فـــيها أشـــعة الشمس على وجه الأرض. رأس إله ينفخ في الأرواح ما يكفي من الضوء لمسح ظلام الذاكرة.

صـــار صعباً علي الاحتماء بصوت "فيروز"، بكلماتها حين تردد: "يالله تنام ريما... يالله يجيها النوم".

fb/mashro3pdf

تبدو هذه الكلمات منتمية لعالم آخر، يشبه العالم الذي تغفو فيه أنت.

مـــنذ الحرب ما عادت أغنيات "فيروز" تحتل الصباح، قمنا بخيانة قسرية لها.

منذ الحرب بردت القهوة أمام نشرات الأخبار، ومنذ الحرب أيضاً كتبت إليك ولم ترد.

هل علي الانتظار كثيراً أمام النافذة؟

بعـــد الحرب، تغيرت لغتي، تبدلت حروفي وتداخلت لتشكل لغة أخرى لا أحد يفهمها أبداً، لغة حروفها تشبه حروف الرسالة المتشابكة التي وصلتني عبر الإيميل، والتي لم أفك طلاسمها حتى الآن..

أنت لا ترد على رسائلي، وأنا سأستمر في الكتابة، لأني لا أكتب لك، أكتب عنك، وعن مارغريت، وعني.

* * *

في الليل، وقفت مارغريت طويلاً أمام المرآة. نظرت إلى نهديها، كانـــا صلبين ومتماسكين في وقت ما، في زمن بعيد. كانت على ثقة أنهما أجمل جزء في جسدها، لكنهما لم يعودا كذلك، هي لم تعد هي، هـــذه الـــسيقان التي تظهر عروقها النافرة، غريبة عنها، هذا الجلد المتغـــضن ليس جلدها، متى حدث له كل هذا التحول؟، كيف تم في غفلـــة مـــنها؟ لكن الانهيارات لا تحدث فجأة، ثمة تصدعات داخلية تـــبدأ بالـــتجمع من دون أن نراها، وحين تظهر يكون كل شيء قد انتهـــى، ويـــصير الترميم أمراً شكلياً لا يطال الجوهر الأصلي. هي ليـــست البـــنت الشابة التي كانت تركض سراً للقاء العاشق، هي ليست المرأة التي تندفع بنهم نحو الحياة، الحب، الشهوة والكتابة. ثمة أشـــياء تفتـــر مـــع الوقت، لكن وحدها الكتابة ظلت معها في كل

fb/mashro3pdf

المـــراحل – أما يان أندريا وحضوره الذي يكسر عزلتها، فلا يسبب لها سوى إرباكٍ يفجر أسئلة عن شتى أنواع الحقائق التي أفنت عمرها بحثاً عنها.

خيانة الجسد تبدأ سريعاً، تحس بالعجز، أسرع بكثير مما تتوقع. ومـــع خذلان الجسد وخيانته، تبدأ الحاجة للعزلة والصمت، الحاجة الملحّـــة للكـــتابة، للـــتخلص من ذاكرة تسيل تفاصيلها وتختلط مع الأحـــداث اليومية. لقد وعت أنها بحاجة للفصل بينهما: بين اليومي والمتذكـــر، ومن أجل هذا الوعي فرضت على نفسها اعتياد العزلة والـــتآلف معهـــا. الكـــتابة لـــن تأتي إلا مع صمتها الطويل، حينها ستتحرك الأشباح القابعة في داخلها بحثاً عن الحرية، عن حياة جديدة عبر كلماتها. وحين يحصل كل هذا تنتبه مارغريت للخيانات اليومية الـــتي يـــرتكبها جسدها. هل هناك أبشع من خيانة يَدكَ حين تنوي الكـــتابة، ارتعاشـــة المفاصل، تمرد الأصابع عن إمساكِ القلم؟ أنت ضعيف، واهن، لا تملك كلمة آمرة على أعضائك، مع مرور الوقت عرفت "ماغي" – هكذا كان يناديها دانيال – بأنها تهدهد جسدها، وتحايله، تتوسله سراً ألا يصل في خياناته حداً لا رجوع منه، لأنها لن تقـــوى علـــى احـــتمال ذلك. لكن الواقع يختلف عن تخيلاتنا عنه، والوصـــول إلى النهايات أمر حتمي لا فرار منه، لكنها كانت تناقش نفسها في طبيعة تلك النهاية وسرعة فوران حدوثها.

ســـ..ـــتـــ.. ـــمـــ..ـــو..ـــت

لكن كيف ستموت!

فكرت أنها تود أن لا تتآكل ذاكرتها، وأن تذوي يوماً بعد يوم من دون أن تتنبه، أو تملك أي قدرة لإيقاف ذاك الانكماش الحتمي.

fb/mashro3pdf

لمعـــت في ذهـــنها صـــور الجثث في هيروشيما(*)، تذكرت الأطفال المـــتآكلة أطرافهم، العيون الفارغة التي تركت مكانها فجوة، الأرجل المقطوعة، والجلد المشوه. لم يبق من كل تلك الصور الكثيفة داخلها سوى ومضات تبرق سريعاً على أكثر الصور إيلاماً. كتبت كثيراً عن تلـــك الصور التي عذبتها طويلا، لكنها بعد مرور زمن على الكتابة، اكتـــشفت أن الكلمـــات لا يمكن أن تكون وسيلة لمحو الذاكرة، أو للتخلص مما نريد التخلص منه، فالكتابة طريقة لإعادة تكوين ذاكرة جديـــدة في كل مرة. حذف، إضافة، هدم وبناء، مثل لعبة المكعبات الصغيرة التي يركب منها الأطفال بيوتاً تتشابه ولا تتناسخ.

* * *

بعـــد أيام، تجرأت زينب على الدخول إلى "غرفة البنت القتيلة"، قـــررت تنظـــيفها، والتعامل معها كجزء طبيعي من البيت. لم يكن في الغـــرفة المشؤومة، سوى سرير وخزانة ملابس بنية لامعة، وكومدينو صـــغير قرب السرير. تبدو الغرفة مميزة عن سائر الغرف بوجود نافذة عريضة، تطل على الشارع الرئيسي. وهي تفتح النافذة، بدا لها صوت صـــرير الأباجـــور الخشب، مثل نحنحة رجل عجوز تجاوز الثمانين، ويعاتـــب الدنيا على هجرها له. غمر نور كثيف المكان، وبدت الغرفة المهجورة تتشرب الضوء بعطش بالغ.

لم تعلـــق الأم على ما تفعله زينب، لكنّ أخيها الأصغر "سامر"، دخل ووقف في وسط الغرفة، وهو يسألها بمداعبة إن كانت تجرؤ على

(*) "هيروشـــيما حبيبتـــي": روايـــة شـــهيرة لمارغريت دوراس، وتم تحويلها إلى فيلم ســـينمائي.يتـــناول الفـــيلم مأســـاة القنـــبلة النووية الأميركية التي أُلقيت على مدينة هيروشـــيما اليابانـــية عـــام 1994. قـــام ببطولة الفيلم الممثل الياباني ايجي أوكادا، والممثلة الفرنسية ايمانويل ريفا، ومن اخراج آلان غربيه.

fb/mashro3pdf

المبـــيت فـــيها. ولمـــا ردت زيـــنب بالإيجاب وهي مستمرة في عملية التنظـــيف، أعقب على كلماتها بأنه يفكر أيضاً بالمبيت في هذه الغرفة أفضل من مبيته في الصالون. ابتسمت له زينب، وهي تدعوه للخروج من الغرفة.

لما اقتربت من أباجور النافذة كي تغلقها وتعود الغرفة إلى صمتها الأولي، أحـــست كما لو أن صوت صرير النافذة أقل هذه المرة، وكما لو أن رسائل امتنان تطفو في هواء الغرفة الداكن.

رن الجـــرس رنات متتالية، فتحت الأم الباب، فوجدت ساندرا بقامتها الطويلة، ووجهها المتوهج من أثر الشمس. استقبلتها الأم بحب، وتبادلا العناق، كانت الأم على علاقة طيبة مع ساندرا، لأن الفتاة تملك حدســـاً ذكياً في التعامل مع والدة زينب. وكانت الأم ترى في ساندرا فتاة جميلة، وعملية، وقادرة على المشاركة في الحوار حول موضوعات متـــنوعة، والأهـــم من هذا بالنسبة للأم أن ساندرا صحافية تعمل في الجـــريدة، وتظهـــر في التلفـــزيون بين حين وآخر، كضيفة تشارك في البرامج الحوارية.

جلست ساندرا في الصالون مع الأم، تبادلتا أخبار الحرب لأكثر من ربع ساعة، قبل أن تأتي زينب وتسحب صديقتها معها نحو المطبخ.

غلايـــة الماء على النار تصدر صوتاً مكتوماً. ترفعها زينب بهدوء كـــي تـــضع فـــيها مسحوق البُن الأسود، تفوح رائحة القهوة الزكية وزينب تحرك الملعقة بيدها اليمنى وتنظر نحو ساندرا الجالسة أمام الطاولة المربعة تكمل حكاياتها عن الحرب وتستعرض على كمبيوترها المحمول الـــصور التي التقطتها في "الضاحية الجنوبية"، وتعلق بين صورة وأخرى عن المكان، وكيف تساوت الأبنية بالأرض، قالت: "شي محزن، دمار، دمار ما بينوصف".

fb/mashro3pdf

تخـــبرها زيـــنب أنها تفكر بالذهاب إلى بيتهم خلال "وقف إطلاق النار" الذي تحدد بمدة أربع وعشرين ساعة. تصمت ساندرا قليلا، ثم تعلق بعـــبارة: "حمـــد الله بيـــتكم مـــا صار له شي كبير، بس أبواب البلكونة والـــشبابيك تدمـــرت، بـــس لسه صامد، ما في داعي تروحي... خلص خبّـــرتك إنه صامد". تبتسم ساندرا وهي تقول العبارة الأخيرة، ثم تحكي لزينب عن قرار كارمن ورجا أن يتزوجا بعد يومين. ترد زينب بدعابة بأن هـــذا قرار صائب الآن كي ينجبا طفلاً بعد تسعة أشهر يسميانه "سلام"، ســـواء كان ولداً أو بنتاً، إذ من يدري متى ستنتهي الحرب. كانتا تتحدثان عن الحرب الحالية، وتتذكران الحرب الماضية المختزنة في ذاكرة طفولتهما.

حكـــت زينب لساندرا عن إحساسها أنها في سجن، ورغبتها في الذهاب للقاء مازن لكنها تخجل من الحب فيما الناس تموت. ضحكت ســـاندرا كثيراً من ربط زينب الوثيق بين الحرب وحاجتها للحب، ثم حكت لها أنها تلتقي مع فادي كل يوم، بل وإنهما ذهبا معاً للسباحة في الأسبوع الماضي.

لكـــن زينب التي كانت مشغولة في التفكير بالتدابير التي تعايش فـــيها الـــناس مـــع الحروب الطويلة التي حلت بالبلد، بدت لها فكرة "الـــسباحة" خـــرافية في وقـــت الحـــرب. كانت السباحة بالنسبة لها استسلاماً كاملاً لجسدها، أن تحيا غبطة خاصة من خلاله، غبطة تبعثها الحرية، حرية العوم الذي يتماهى مع حالة من التحليق التام. لكنها غير قادرة على هذه الحرية الآن، لأنها تحس أن جسدها مكبل، وأن ساعات آخـــر الليل، قرابة الفجر حين تكتب، هي الساعات الوحيدة التي تقدر أن تطفو فيها بعيداً، نحو الأعلى.

صديقتها، تواصل استعراض صور الدمار، وربطها بأسماء الأماكن للتعريف بالصورة، بدت غالبية الصور مجرد لقطات متشابهة للخراب،

fb/mashro3pdf

كما لو أنه من الممكن شم رائحة البارود عبر الصور. نظرت زينب إلى ساندرا التي تحمل فنجان قهوتها بكلتا يديها، كانت قامتها الطويلة أشد نحـــولاً، أو هكـــذا تخيلت زينب، وتحت عينيها الخضراوتين، هالات ســـوداء واضـــحة. أشارت زينب نحو عيني ساندرا وهي تسألها: "ليه هـــيك؟"، أجابت بأنها لم تنم منذ أيام، لكنها لم توضح السبب. قالت كلماتهـــا وهي تحمل حقيبتها الكبيرة التي تحتوي الكمبيوتر والكاميرا، وأشـــياء صـــغيرة أخـــرى. تسير نحو الممر استعداداً للمغادرة، تتمرد خـــصلات شـــعرها الأجعد الأمامية على ملقط الشعر الذي تحبس فيه شعرها الكستنائي الكثيف، تحركت تلك الخصلات بخفة في الممر شبه المظلم. للحظات أحست زينب أن ساندرا كائن شبحي غريب، بذاك "التيـــشيرت" الأبيض الذي لا يتلاءم مع جو الحرب، وبنطالها الجينـــز الأجـــرد، حملـــت حقيبتها على كتفها الأيسر وهي تودع زينب التي طلبت منها أن تبلغ سلامها لـــ "ماما تيريز".

من نافذة المطبخ التي تنظر زينب عبرها إلى الشارع، يبدو المكان هادئـــاً جـــداً وأليفاً، ليس له علاقة بالحرب التي تقع في مكان قريب. كانـــت السيدة العجوز في الشباك المجاور تسقي نباتاتها وورودها التي تتدلى خارجاً ممسوكة بقوالب حديدية تحتضن أوعية الورود والنباتات البيتية المزروعة في أصص صغيرة. تمنت زينب أن يكون في مطبخها مثل هـــذه الأصـــص، لكنها تذكرت أن هذا غير ممكن لأنها لا تنتمي لهذا المطبخ، وأن وجودها فيه لزمن مؤقت ليس إلا.

بعـــد يـــومين حين سارت "زينب" في الشارع الذي تسكن فيه "كـــارمن" في الأشرفية لتحضر حفل زفافها مع رجا، لاحظت غياب "إيلـــي" الرجل المخبول الذي كان يقف دائما عند أول الحي، يرتدي ملابسا رثة، ويترك لحيته طويلة جداً ويصرخ بالمارة: "يا يسوع، يسوع

fb/mashro3pdf

المخلص، يا عدرا مريم".. يردد ابتهالاته وهو يمد يده للمارة كي يعطوه بعض المال، وفي بعض الأحيان كان يقول: "بدي أشتري منقوشة، بدي لحمة بعجين". في بداية قدومها إلى بيت كارمن كانت تخاف منه، لأنها تخاف من المخابيل عموماً، بخاصة حين يمتلكون جرأة "إيلي" في إقترابه للحديث مع العابرين في الشارع. لم يقترب منها "إيلي" سوى مرة واحدة، حين قال لها، وهو يرفع يده قرب رأسه كما لو أنه يؤدي تحية عسكرية: "بونجور مدموزيل، بدي أشتري منقوشة"، تكلم بكل تهذيب وهي تنظر إلى عينيه الرماديتين، وثيابه الرثة، بدا لها حينها رجلاً منكوباً، عمره ألف عام. أعطته زينب النقود، ومضت، لكنها ظلت تتلفت نحوه، فيما ظل واقفاً يستوقف المارة بأسلوب مختلف كل مرة. لا أحد يعرف حكايته، لكن جميع من يتردد على بيت كارمن يعرف "إيلي" ويتندر بطرائف عنه.

الشارع كان ساكناً تماماً، وكان "إيلي" غائباً عنه. فكرت زينب أنه ربما اختفى بسبب خوفه من الحرب، وأن أصوات القذائف البعيدة جعلته يمضي بلا هدف، لظنه أنها ستصل إليه حتماً. فكرت أن إيلي ربما فقد عقله بسبب إحدى الحروب السابقة، والكثيرة، ربما كان قائداً، أو جندياً، ربما شاهد كثيراً من الجثث حتى جُنَّ.

السكون الذي خيم على الحي في ذاك العصر، سخونة الهواء التي عبقت بأوراق الشجر، ولون السماء الفضي المائل إلى الزرقة الثقيلة، أمور جعلتها تفكر في تناسب هذا الوقت كي يتم فيه زفاف كارمن ورجا. الجو الصيفي العابق بالسخونة، لا يوحي بالحرب، لكنه لا يشجع على الفرح أبداً.

وسط الحاضرين، بينما تنظر إلى كارمن في ثوبها الأبيض، أحست زينب أنها غائبة، رغم أن الموسيقى لم تكن تصدح عالياً كما يحصل في

fb/mashro3pdf

حفـــلات الزفاف التقليدية، لكن ثمة انشطار في داخلها. هي تعيش في بلـــد هش، جزء منه فيه حرب، وجزء آخر من الممكن أن يحتفل الناس فيه بفرحة الزفاف.

ماذا تفعل هنا؟

هل أتت لتشارك بالفرح؟ لأي قسم من البلد تنتمي هي؟

الانـــشطار الذي تحس به يتمدد وينقسم على نفسه، يتحول في أجـــزائه الكثيرة إلى كم من الأسئلة لا تجد إجابات عنها، أسئلة ترتفع عالياً كما في التغيرات الجيولوجية حين تنشق الأرض ويخرج منها جبل كامن. يحدث أن يخرج منها جبل من التساؤلات لا يمكنها تجاوزه.

لكـــن، لِـــمَ علـــيها أن تقول "لا" للحظات فرح مسروقة، أتت بالصدفة؟

لِمَ عليها أن تجلس عند النافذة، تراقب مذبحة الحرب، وضحاياها؟

لِمَ يحدث كل هذا! فقط لأنك حين تكون من (ب. غ)[*] فهذا يعني أنك لست من (ب. ش)[**]، وحين تكون من (ض. ج)[***] فهذا يعني أنك لست من (ب. غ)؟

أليست هذه هي المعادلات التي تحكم البلد؟

فكـــرت أنها لا تحب كل هذه المعادلات التي تفرض حضورها في عالمهـــا، فكـــرت أنها تحاول مقاومتها بكل ما أوتيت من قوة. لذا هي موجودة هنا الآن لتشارك كارمن ورجا فرحة زفافهما.

في الـــيوم الـــتالي خلال نشرة الأخبار، ورد ذكر زفاف كارمن ورجـــا في إطار الحديث عن البلد الذي يقاوم الحرب. تحدث رجا أمام

(*) ب. غ: المقصود فيها بيروت الغربية.

(**)ب. ش: بيروت الشرقية.

(***) ض.ج: الضاحية الجنوبية لبيروت.

fb/mashro3pdf

الكـــاميرا بأن موعد زفافهما كان محدداً من قبل حدوث حرب تموز، وأنـــه لن يدع الحرب في كل مرة تفسد خططه في الحياة. حكى رجا عـــن فقده لوالده خلال الاجتياح الإسرائيلي لبيروت، وعن توقفه عن الدراســـة في الحـــرب الأهلية، ثم كرر كلامه أنه لن يترك هذه الحرب الجديدة تُفسد أحلامه.

فرحت زينب وهي تسمع كلام رجا على التلفزيون، غمرتها حالة مـــن الـــبهجة بالحـــياة، والقدرة على الفرح، كان أخوها وسام ينظر بسخرية إلى الشاشة ويوجه كلماته إلى زينب ساخراً من رجا بقوله:

"مـــش هيدا صديقك اللي عامل حاله وطني، ورايح يتجوز وقت الحرب".

* * *

يان

أتراني أكتب بحثًا عن حكاية غافية بين أوهام شتى، أم عن عبث لم أعشه في وقته!

لكن علي الاعتراف أن هناك في أقصاي، في منطقة بعيدة للغاية، مـــساحة مفتوحة، غائمة، أشبه بأرض فيها شجر غير مثمر، أرض فيها بـــرد، وتهـــب عليها عواصف تكسر الشجر وتحنيه، وتشقق الأرض، مساحة تهب فيها رياح غير موسمية، بينما أنا أجلس في الطرف القصي مـــن تلك الأرض، أبصرها ولا أتمكن من فعل شيء. في تلك المساحة تمامًا، أحس بالبرد الشديد، أحس كأني أنشج نشيجًا مؤلمًا، وأحتاج إلى قـــوة على شكل زلزال من أعماق الأرض كي ترفع الطبقات المتراكمة التي تمنع دخول الشمس إلي، تمنع الإحساس بالدفء. أتفهمني؟

أدري أن كل الأشياء مؤقتة، تحل وتمضي، ونحن ندور وندور، لا شـــيء يبقى سوى النواة الأصلية لأرواحنا، لكلماتنا، لما أمضينا عمرنا

fb/mashro3pdf

نـــبحث عـــنه. وأنا عَمَّ أبحث، في وسط هذا الدوران الهادر، في وسط حرب مجنونة، لا ترحم.

يان...

أغمـــض عـــيني، فـــأرى ضـــوءاً كثيفاً، ولا شيء غير خطوط الكلمـــات، سرابية، شفافة، كوهم كبير، لكني أبصرك في العتمة، في عتمتي، أراك معها، أرَاكُما معا. أراك في قلب باريس. أراني وحدي في مكان بعيد، معزول، أكتب كلمات لا يقرأها أحد.

* * *

تجلـــس مارغـــريت أمام طاولة أوراقها في الطابق العلوي، بين أصابعها قلم لا تسيطر على حركته فتكتب كلمات عشوائية وترسم خطـــوطاً غـــير واضـــحة، تزداد حركة يدها ارتعاشاً كلما أحست بالعجـــز عن إيصال فكرتها، أمامها كأس ويسكي ممتلئةٌ حتى نصفها، تـــناولت منها جرعة كبيرة وهي تنظر من نافذتها إلى الحديقة، تقابلها نافذة ستارتها الخمرية مفتوحة من جانب واحد.

يجلـــس يـــان في الجانب الأيمن من الغرفة، أمام طاولة صغيرة، علـــيها آلة كاتبة، يستمع إلى كلمات مارغريت، وينقر على حروف الطـــباعة. حين يحس بتوترها يزداد، يتحرك من وراء الطاولة متقدماً نحوها، يضع ذراعه حول كتفها، يسألها:

– ما الذي تودين قوله؟

– لا أعرف تحديداً. إنه صعب.

ضمها إلى صدره بحنو وهو يقول:

– هل هناك ما تودين قوله عني، عنا، عن هذا العالم؟

– صـــعب أن أقـــول شيئاً عنا، لن أفعل الآن، ربما هناك من ســـيقول في يـــوم ما. ربما أنت من سيقول، لكن أنا، الآن، لا، ليس

fb/mashro3pdf

لـــدي مـــا أقوله. في أحيان كثيرة أفكر لماذا أنت هنا؟ لماذا لم تمضِ بعـــيداً، وتـــأتي لزيارتي من حين إلى آخر، لم تصر على البقاء؟ لكني بدأت الاعتياد على وجودك.

قَـــبّلها يـــان على وجهها وجبينها، ثم عاد للجلوس أمام الآلة الكاتبة.

– دعينا نواصل الكتابة، أو الحديث، كما تشائين.

– أحـــياناً أكون ضائعة، بلا هوية، أحس أني بلا وجه، جسد فقط.. يتحرك بلا ملامح حادة تميزه، أتخيل لو أنني نظرت إلى المرآة في تلـــك اللحظة، سأرى مكان وجهي مساحة ممسوحة، هناك رأس لكـــنه بلا ملامح، رأس محمَّل بأفكار مضطربة، لكنه لا يملك عينين لـــيرى ويكتب، لا يملك فماً ليبوح، ليملي ما يود كتابته. أود كتابة المزيد من الكتب، ما يزال أبطالي ينادون عليَّ ليلاً. يان.. أتدري أن الـــوقت الذي أمضيه وحيدة هي ساعات نومي القليلة، في صحوي يمـــلأون رأسي بثرثراتهم وضجيجهم، وفي صحوي تكون أنت هنا، أنت يا عاشقي الليلي(*).

– هل تزعجك ثرثراتهم، أم إنك تخافين من الوقت، ألا تكونين أمينة في كتابة كل ما قالوه، تخافين موتهم أم موتك؟

– هذا أمر يصعب علي تخيله، أنا وَهُمْ نلعب لعبة تبادل أدوار، لم أكن يوماً غريبة عنهم، كما لم يكونوا غرباء عني، كلنا واحد، لذا ســـيكون المـــوت بطيئاً، وتدريجياً لي ولهمً. عليّ الإيمان بهذا كي لا أخسر كثيراً.

– وأنا؟

(*) هـــذه العـــبارة قالـــتها مارغـــريت دوراس عـــن يـــان أنـــدريا فـــي نـــصوصها الأخيرة.

fb/mashro3pdf

– أنـــت، بما أننا معاً، فهذا يعني أننا نحب، الحب يعني الحياة، الحـــياة كلها، يعني الكتابة، وفرح نمسك به للحظات. برفقتك ربما أكـــون أكثر أماناً، كثيراً ما تمنيت أن أكون برفقة عاشق. هل هناك أجمـــل من أن أكون مع "عاشقي الليلي"، بكل روعته، بكل الجمال في يديـــه الطـــريتين اللـــتين تحملان غيوماً دافئة؟ لكن؛ أتدري، ثمة ذكـــريات تعصف بـــي، تثقل علي، تهاجمني، ثمة صور راسخة، تحتل ذاكـــرتي، وينبغـــي علي التخلص منها، وهذا ما لم أتمكن منه بعد. أحاول، وسأظل أفعل.

* * *

ملصقات.. ملصقات، تحاول نـــزع بقاياها.

تذكـــر زيـــنب جـــيداً كلمة "ملصقات"، قالها لها د. رامي في جلـــسات العلاج النفسي. كانت مندهشة وهي تسمعه يقول: "أنت تتـــركين ملصقات على ذاتك، ملصقات وضعها الآخرون، وصَدّقتها أنت".

لم تفهـــم عـــبارته إلا بعـــد أن شـــرح لها أن عليها نـــزع كل الملـــصقات الـــتي تراكمت على "أناها" وجعلتها لا ترى نواة روحها الأصلية، قال لها إنه ليس هناك شيء اسمه "طبيعة بشرية"، وإن ما نظنه طبـــيعة هو شيء اكتسبناه مع الزمن. يجب أن تنسى كل العبارات التي فـــيها كلمة "أنا" محملة بصفة معينة رسخت في ذهنها بمرور الأعوام. طلـــب منها أن تتخلى عن كل تلك الملصقات وترى نفسها من جديد مـــن دون استخدام "أنا.." ملحق بها صفة ما، وغالباً ما تكون سلبية. رأت زيـــنب في ذاك الطبـــيب شخصاً مثيراً للأعصاب، يسخر منها، ويتحداها بلا سبب، ففي اللحظة التي حكت له فيها أنها لا تحب شيئاً في هـــذا العالم، ولا يجذب اهتمامها أي أمر، طلب منها أن تذهب إلى

fb/mashro3pdf

الغـــرفة المجاورة وتكتب على صفحة بيضاء عدد 111 شيئاً من الأشياء المفضّلة لديها، وحين قالت له: "لا أقدر، لا يوجد". رد عليها بفعل أمر قـــائلاً: "اكتبـــــي، اكتبـــي عن الأشخاص، والأحداث، والأفلام، والأشـــياء، حـــتى ما تعتبرينه تافهاً، يجب أن تكتبيه". في تلك القائمة الطويلة وجدت أنها كتبت عن أمور أحبتها ونسيتها مع الوقت، كتبت عن روايات مارغيت دوراس، عن أفلام شاهدتها، عن مازن، ساندرا، كـــارمن، وعـــن أشـــياء صغيرة لا تهم أحداً مثل "جبنة البارمزيان"، و"التوست بالزبدة".

طلب منها د. رامي أن تحتفظ بتلك الورقة، لكنها مزقتها مراراً، وغـــيرت تـــرتيب أولوياتها. حين ستمرض أمها، ستبكي زينب كثيراً، وتحس بالتقصير نحوها، ستمزق الورقة، وتكتب واحدة أخرى تضع في رقم واحد كلمة "أمي". لكن في أوقات أخرى سترى أمها زوجة الأب الشريرة التي تستلذ بتعذيبها، وتمارس عليها كل تسلطها الذي لا تقدر أن تمارسه على أولادها الذكور.

بعد كل جلسة علاج كانت تحس أنها شجرة تم تشذيب أوراقها وقـــصّ غصونها حتى الحد الأقصى، وأن جلدها عارٍ، لكنه صحي قادر على تحمل حرارة الشمس وبرودة العواصف.

لم يعـــرف أحـــد مـــن سكان البيت أن زينب ظلت تتردد على جلسات العلاج النفسي مدة عام كامل. هذا الأمر لم يعرفه أحد سوى مازن.

كانت ترى نفسها "سندريلا"، والفارق أنها تعيش مع أمها وليس مـــع زوجـــة أبيها، لديها شقيقان، وهي ليست جميلة مثل "سندريلا". وبالنسبة لأمها، كان من الطبيعي أن لا تتزوج، وأن لا يهتم بشأنها إلا أشـــخاص من مستوى أقل، لكن لن يلتفت لها أحد ذو شأن رفيع من

fb/mashro3pdf

وجهـــة نظر الأم، فهي غير جميلة، وبشرتها فيها بثور، وجسدها نحيف وغـــير متناسق، كما أنها تضع غطاء الرأس. حين أخذت قرار الحجاب كـــان عمـــرها 14 سنة، أرادت أن تتميز عن الأم، أن تختلف عنها، وعندما غضبت أمها بشدة وطلبت منها نـــزع غطاء الشعر، ازدادت رفـــضاً. كانـــت تعرف أنها تستفز الأم، لكن هذا الإحساس سَبّبَ لها نوعاً من الانتصار النفسي، الذي لم تفهم علّته في ذلك الحين.

بالنـــسبة إلى أخـــيها وسام، هي قطة البيت السمراء، التي تقوم بالإمـــساك بالفئران، وإحضار كرة الصوف البعيدة. القطة ستظل قطة طوال عمرها، ولن تتحول أبداً إلى فتاة.

تظن زينب أن أمها كرهتها منذ اللحظة التي اختار لها والدها فيها اسم "زينب" على اسم جدتها، كانت أمها تنوي أن تسميها "غابـــي" لأنها كانت تحب المذيعة الجميلة "غابـــي لطيف"، لكن الأب أصر على تـــسميتها "زينب". فكرت أن أحداث حياتها وربما قدرها كله سيكون مخـــتلفاً لـــو كان اسمها "غابـــي"، ربما ستحبها أمها، ربما لن يعاملها أخـــوها الأكـــبر بهذا التجبر، ولن ينظر أخوها الأصغر إليها على أنها الأخت الطيبة التي تنظف البيت وتطهو الطعام، وتضع الجزء الأكبر من راتبها في يد الأم.

ربمـــا مـــا كانـــوا اختاروا لها دور الابنة- الخادمة لو كان اسمها "غابـــي". لكن "زينب" هو اسمها الآن، اسمها الذي أحبته لأنها أحبت جـــدتها، المـــرأة القـــصيرة والنحيلة التي تفيض حناناً على الأشخاص والكائنات، جدتها التي من الممكن أن تكون غير مرئية لو أرادت ذلك، المـــرأة التي تصطبغ يداها باللون الأسود من قطف التبغ وتنقيته وإعداده للبيع.

* * *

fb/mashro3pdf

يان

سأحكي لك عن بيروت كثيراً.

على شاطئ البحر، أرى في كل مرة وجه رجل عجوز يحمل علماً أبيض ثقيلاً يحني ظهره، وجه الرجل العجوز هو وجه الصياد الذي أراه علـــى شاطئ المنارة، هو وجه الطفل الذي يأكل عرنوس ذرة مسلوقاً، ويحلم بقلم رصاص طويل في أعلاه قبعة من ريش ملون تشبه قبعة زعيم هندي.

في بـــيروت أحـــس أني أطفـــو على قطعة فلّين، وأن البحر رئتي الوحـــيدة، لكن المدينة مزدحمة بشاشات كبيرة، شاشات تبث أغنيات بليدة، وإعلانات عن الكوكا كولا ومشروبات الطاقة.

بيروت لا ترى الناس.. ترى صورهم فقط.

الفقراء يبدون على الشاشة أكثر تعاسة وفقراً.

الممـــثلة السمينة تشكو أن حجمها يتضاعف أمام الكاميرا، فيما الفقـــراء يرضون أن تتسع جروحهم أمام الشاشة ليتضاعف حجمها، وإلا كـــيف ســـيثيرون شـــفقة الأثرياء، ويسْتجدون أحاسيسهم بفقر عادي؟

ســـاندرا تقـــول إن الأغنـــياء لا يفعلون خيراً حين يدفعون المال للفقراء، لأنهم يعيدون ما أخذوه منهم سابقاً.

لكن بيروت تبدو أكثر شراهة وجوعاً، حيث المرأة العجوز تحكي للمذيعة الملونة عن بناية سكنتها مجاورة للحي التراثي، لكنها سقطت في الحرب، كما تساقطت أسنان المرأة، جداراً على جدار.

سأحكي لك عن الحي الذي أسكنه في "بير العبد"، قرب الجامع، مكـــان لـــن تعرفه أبداً، ولن تزوره. إنه جزء من "الضاحية الجنوبية"، تـــشكلت ملامحه أكثر بعد عام 1982، بعد أن تهجّر إليه أهل الجنوب

fb/mashro3pdf

الـــذين صـــارت بلداتهم تحت الاحتلال. مكان يزدحم بالناس، الذين يـــشتركون بالانـــتماء إليه لأنهم ألفوه وشكّلوه وفق هويتهم الخاصة، هؤلاء الناس يخافون من العودة إلى الجنوب لأنهم دوماً قلقون من حرب جديدة.

سأحكي لك عن أماكن أخرى ربما سمعتَ عنها، أماكن لها هوية مختـــلفة تماماً عن المكان الذي أسكن فيه. هناك أحياء جانبية في منطقة الأشـــرفية، في الجميـــزة، في شارع الحمرا، توجد فيها لافتة حديدية مكـــتوب عليها عبارة:"حي ذو طابع تراثي". تضحكني هذه العبارة، تضحكني حتى الألم، لأنها تعني أن هذا الحي لم يلحقه ضرر الحرب. ولا يحمـــل دلـــيلاً علـــى ذاكرة الخراب، يا لها من كذبة وقحة. لا توجد حـــارات قديمة في مدينتي، لا توجد بيروت قديمة، المدينة القديمة زالت مـــنذ زمن، وحلت محلها أسواق حديثة مبنية على الطراز القديم، لكنها بلا هوية، بلا أسرار.

عـــند الـــدرج الحجـــري الذي يربط الجميزة بالأشرفية، تتوزع الأشـــجار بين البيوت على جانبـــي الدرج، وتتدلى المصابيح الصغيرة مـــن الأعمدة الحديدية. قرب مزار "مارتقلا" أشعلتُ شمعة، ثم التقطت صوراً عدة. كنت سأنقل الصور إلى الكمبيوتر كي أرسلها إليك، لكن لم يكن هناك متسع من الوقت. رائحة البارود كانت أسرع مني.

بعـــض الأحياء التي نجت من دمار سنوات الحرب الماضية توجد فيها شرفات صغيرة، مستطيلة في الغالب، تزينها نباتات تحب الشمس قلـــيلاً، وتـــتدلى بحذر خارج الحديد الذي يعلوه قليل من الصدأ. لكن الجـــدران أصيبت بالبكم وفقدت حاسة اللمس، لكنها تتنفس، تبوح بحكايـــا قديمـــة تـــسبق عمري بأعوام كثيرة، تحكي عن ذاكرة عتيقة للأماكن المدللة.

fb/mashro3pdf

لكـــن الحـــي الذي أسكن فيه ليس مكاناً مدللاً أبداً، إنه مكان مـــزدحم جـــداً، أبنيـــته متلاصقة، وشوارعه مكتظة بالمحلات والباعة المـــتجولين، لـــيس فـــيه أرصفة للمارة. وفي أيام الشتاء، حين تغضب الـــسماء، وتزمجر كثيراً، يستيقظ الناس على طرقات مغمورة بمياه المطر الممزوجة بالوحل، وبرك صغيرة تتحول لمستنقعات تعبر منها السيارات من دون مبالاة، وترش ثياب العابرين بالمطر الموحل.

الناس في منطقتي يحبون "الله" كثيراً، يعتقدون أنه معهم دائماً، لذا هناك مساحة من الأطياف الغيبية والمنامات تحضر دائماً في حياتهم. في أيـــام مراهقتي، كنت أذهب كثيراً إلى الجامع، أحضر دروس الدين التي تعقـــدها الحاجـــة منى، كنت أصغر الحاضرات، كان عمري 14 سنة، وكانت الحاجة منى تأمل أن أكون مكانها في يوم ما، لأني كنت سريعة الحفظ والترديد للآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لكني لم أملك أبداً قدرة جيدة على الكلام، كانت تنقصني الفصاحة. انتهى كل هذا رويداً رويداً، وحين صرت في العشرين من عمري، لم أعد أتردد على الجامع. لـــو عدت الآن لتذكّر تلك المرحلة أحس أنها ضبابية جداً، لا يبدو لي شـــيء واضح تماماً، سوى موت أبـــي، ثم بحثي عن الله في الجامع، ثم إحـــساسي أني لم أعـــرف الطريق إليه بعد. لذا ما زلت أبحث عنه، في قلبـــي، في ظل رجل عجوز ينحني ليلتقط الخبز عن الأرض، في هدوء البحر، وهدير شجرة الصفصاف التي شاخت منذ أعوام.

* * *

حصى صغيرة على شاطئ البحر. تدوس قدما مارغريت حصى الـــشاطئ في حركة تحاول عبرها تثبيت قدميها كي تترك الحصوات آثارهـــا على جلدها الجاف، تود أن تحس أنها يقظة حتى الحد الذي تؤلمها فيه الحصى الصغيرة. شالها الأزرق يطير مع موج البحر، ويان

fb/mashro3pdf

أنـــدريا يسير برفقتها بخفة مع اندهاش طفولي في لمعان عينيه. كانت تحكـــي لـــه قصة تكتبها عن الطيار الإنجليزي الشاب الذي لم يبلغ العشرين ربيعاً، الذي مات في اليوم الأخير من الحرب العالمية الثانية، حين كان يلعب بطائرته ويطوف حول قاعدة للألمان، كان طفلاً يلهو أكثر من كونه طياراً حربياً. حين سقطت طائرته في الغابة، ظل هناك يـــومين قـــبل أن ينجح أهالي القرية في إخراجه من الطائرة، جسداً مدمى، ميتاً، مجهولاً تماماً.

قالـــت: "هل من سبب غير الحرب يجعل شاباً في العشرين يظل ميتاً حبيس طائرة معلّقة أعلى الشجرة، يموت في غير بلده، في مكان لا يعرفه فيه أحد؟ لماذا اندفع نحو الموت بكل هذه القوة! الموت الذي حضر بخفة ورافقه في طواف نهائي!".

تـــوقفت عن الكلام قليلا، ثم حدقت في عيني يان أندريا قائلة: "هناك من يحبون الحرب، أليس كذلك يان؟".

مـــضى الـــسؤال مـــن دون إجابـــة كما لو أنه تناثر مع زبد الموج.

كانـــت مارغريت تسرد قصة الطيار الإنجليزي، بجمل متقطعة، كمـــا لو أنها تكتب. ظل يان صامتاً، هو يخاف أحياناً من حدتها، من ردة فعـــل غير متوقعة قد تقوم بها في لحظة ما، لو قال جملة لا تروق لها. أمسك بيدها ودفعها للركض على الشاطئ، صار الحصى خفيفاً تحت قدميها العاريتين. غمر مارغريت شعور فضّي من نشوة البحر، مـــن شـــعاع الشمس المسائي، وتراجع إحساس الثقل العالق بها في معظم الأوقات. أحست أنها تود أن تركض مع يان أندريا، أن تظل معـــه، أن يبقـــيا معاً في زمن أبدي مفتوح، ينهي صراعها مع الإله المجهول، مع الوحدة، الوقت، العزلة التي تتوق إليها وتهرب منها، ثم

fb/mashro3pdf

كـــيف تريد العزلة وها هي الآن هنا مع يان أندريا، يمشيان معاً على الشاطئ، ويستمعان لأزيز الكون؟

كـــذب، لا تـــوجد عزلة مع الآخر، وجود الآخر ينأى بفكرة العـــزلة بعيداً، وفي حال تقبلنا حلول هذا الآخر في حياتنا فهذا يعني أننا تنازلنا عن تلك العزلة المزعومة.

كـــان فيها توق للكتابة، حكاية الطيار الشاب تناديها، لكنها تتـــرك الكلمات جانباً الآن وهي تركض باندفاع على شاطئ البحر المتعرج، تشد على يد يان أندريا الذي ضمها إليه بقوة وهو يداعب عنقها وأعلى ظهرها.

* * *

يوم آخر من أيام الحرب، لا شيء غير الترقب، والانتظار.

عـــادت موســـيقى عزف البيانو، تتسلل إلى سمعها في آخر الليل، حـــتى ساعات الفجر الأولى، كادت زينب تيقن أن ثمة عازفاً مجهولاً، يمـــارس تماريـــنه على العزف بعد الثانية ليلاً. لم يذكر أحد من أفراد عائلـــتها شـــيئاً عن الموسيقى الليلية، كما أنها لم تسأل أياً منهم، لأن زينب ينتابها الشك في حواسها في كثير من الأحيان، بخاصة مع امتزاج أصـــوات الحـــرب، بكل آلامها وأنينها، مع أصوات أخرى تأتي من أماكن شتى. لذا لم تعد قادرة على التمييز، تحس أنها تطفو بين عالمين، أحـــدهما تنـــسحب نحـــوه بلذة، والآخر يأخذها إليه عنوة، بكل ثقله وجـــبروته. كانت تبيت أحياناً في الغرفة المهجورة، لكنها لم تسمع أياً مـــن تلـــك التمـــتمات، أو البكاء الذي حُكي عنه، في "غرفة البنت القتيلة"، كانت تغفو بعمق، أحياناً يقطع غفوتها صوت العزف القريب، لكنها كانت تحلم كثيراً، أحلام فيها وجوه عرفتها، ووجوه لم تعرفها. لكـــن الحلـــم الوحيد الذي سبب لها الفزع، حين شاهدت نفسها في

fb/mashro3pdf

سجن كبير، مع نساء وفتيات كثيرات، حاولت الكلام، إلا أن صوتها كان مخنوقاً، ذاك الحلم، أو الكابوس، سبب لها هلعاً أكثر من أصوات القذائف. و لم تجد له أي تفسير سوى أنها مسجونة فعلاً، في سجن الحرب.

الحرب التي تزامنت عندها بزحف جارف للموت. مات أبوها بالسرطان خلال الحرب الأهلية. ثم مات عمها الوحيد في قذيفة سقطت على المبنى الذي يسكن فيه، وبعد عامين ماتت جدتها حزناً عليهما. وبعد موت تلك الجدة الطيبة انقطعت الصلة بعائلة أبيها.

تلح عليها رغبة الاتصال بمازن، أين هو الآن؟

وهل من الممكن الذهاب لموعد حب في زمن الحرب؟

هاتفه مغلق. الصوت الآلي الذي يبلغ تعذر الاتصال به يدفع داخلها إحساساً بالغثيان.

تفكر زينب أن "مازن" ربما يكون أكثر رجل أحبها، وتقبّلها كما هي من دون أن يحاول تشكيل نسخة معدلة منها، كما فعل الجميع.

سترى في وقت ما أن قصتها مع مازن لها أكثر من باب، لكن كل تلك الأبواب الكثيرة تؤدي إلى نقطة واحدة تتقاطع فيها كل الخطوط.

التقت "مازن" في الجامعة، يصغرها بعامين ونصف، كانت قد انتهت من دراسة الرياضيات، وتمارس التعليم كما خططت لها والدتها. لكنها بعد جلسات العلاج النفسي قررت العودة للدراسة، اختارت دراسة الأدب الفرنسي، هكذا تعرفت على روايات مارغريت دوراس، لكنها لم تعرف حكايتها مع يان أندريا إلا عن طريق مازن. أعطاها نسخة من فيلم "هذا هو الحب"، وأخبرها أنه مأخوذ من كتاب يحمل الاسم نفسه، كتبه يان أندريا عن قصته مع مارغريت دوراس.

fb/mashro3pdf

في مـــا بعـــد عرفت زينب أن هذه النقطة المهمة لحكاية مازن، ليـــست هي البداية لقصتها هي معه، ربما بدأت حكايتهما بعد عام من الـــصداقة، بعـــد ذاك العناق الذي حصل في بيته، حين كانا متقاربين، وكانـــت تهذي من البكاء بسبب قصة وله بائس. في تلك اللحظة التي احتضنها فيها مازن، ربما لم يفكر أيٌّ منهما كيف ستكون علاقتهما في مـــا بعـــد، كما لم يفكرا بالصداقة التي من الممكن أن تتبخر فيخسرا الحالتين: الصداقة والحب.

هـــي لا تذكر تماماً ما حدث، التفاصيل تبدو ضبابية في ذهنها. ضبابية تماماً. لكنها ستعرف مع الوقت أن "مازن" كان حقيقياً. حقيقياً جـــداً. ربما أكثر منها بكثير. كل ما تذكره بوضوح الآن هو السكون الذي غمرها بشعاع أبيض.

ساعدها مازن على معرفة ذاتها أكثر.

ثمـــة شيء ما بينهما كان مختلفاً تماماً، يشبه العزف، التحليق، العوم. مـــنذ تلك اللحظة التي تلاصقا فيها على الكنبة، حين شدها إليه وصارت ملاصـــقة لجـــسده، وبعـــد أن طوقها بذراعه اليمنى وربت على ذراعها تربيتات متتالية، أحست بهدوء، بسكينة، وأمان، نوع من المشاعر لم تعرفه مـــن قـــبل، دفعت إلى قلبها غبطة شديدة. تورد جلدها مثل رغيف خبز خرج توا من الفرن، وكما لو أن الذبول، والحيرة، والخوف، جلد مهترئ تقشر عن طبقاتها السطحية، وظهر لها جلد جديد، نضر، ومشدود.

كانـــا يـــسمعان موسيقى "تشايكوفسكي" وهما في السرير، يلامس جـــسدها بحنو هائل. كانت ذرات الهواء تتشبع بالحنان، تحس أن كل ما في الغـــرفة يبتـــسم، الباب، الشباك، الطاولة، المزهرية، السجادة الصغيرة، منفـــضة الـــسجائر، علبة الأقلام، جهاز الكمبيوتر، ملاءات السرير، كل شـــيء يتـــناغم مع خط القبلات الصغير الذي يبدأ من سرتها ويرتفع حتى

fb/mashro3pdf

خط الزغب الأسمر بين نهديها. كانت تصفه بأنه "نبـــي الحنان"، وأنه من الممكن أن يبشر بتعاليم جديدة عن أسطورة "الحنان" في لأم جراح البشر.

في حلـــم هذه الليلة، رأت نفسها تدخل من باب إلى باب، رأت أبـــواباً كثيرة في كل الاتجاهات، أبواباً مشرعة. كان مازن يقف متكئاً علـــى أحد تلك الأبواب، يرتدي قميصاً أبيض، وبنطالاً من الجينـــز، شعره كما يكون عادة مجعداً طويلاً حتى رقبته، يشبه لبدة خروف، وفي الحلم أمسكته من شعره بكلتا يديها وحاولت جذبه نحوها، لكنها ظلت تعارك الفراغ.

* * *

يان أندريا..

ربمـــا يـــوجد في الحب العظيم كَمٌّ من الجنون، من العبث، يفوق أحياناً قدرتنا على الاحتمال.

ربما الحب العظيم حالة جنون ليس إلا.

أنت ربما عرفت هذا النوع من الحب، لا يمكنني الجزم بذلك، ثمة أسئلة في ذهني تدفعني للتخيل أن كل شيء كان وهماً.

ماذا لو كانت كتابتي لك مجرد وهم!

مـــاذا لـــو كانـــت قصتك مع مارغريت تخبئ أسباباً أخرى غير الحب!

إن كـــل الحقائق تحمل ظلالاً، لا يمكننا إنكارها، لأنها موجودة وتكـــبر، ولا تنتهـــي إلا بعد أن تنفجر مثل دمل يخرج معه كل الدم الملوث.

لكـــن أنـــا على أي حال لم أعرف حباً عظيماً ومستمراً، كما عـــرفتَ أنـــت. وحـــين سأحكي لك حكاياتي القصيرة، ربما ستدرك السبب الذي يدفعني للدخول إلى زمنك.

fb/mashro3pdf

في المرة التي تكلمنا فيها قلت لي إنك لن تكمل كتابك، وستنسى مارغريت. كنت تكذب علي، كلانا كان يعرف أنك تكذب، وكلانا أيضاً كان يحب مارغريت. فكيف أقنعك بنسيانها؟

مارغـــريت كانـــت شابة، فاتنة وقوية، قبل أن تولد أنت، وفي الوقت الذي كنت تلهو فيه مع رفاقك الصغار كانت هي تكتب أعظم رواياتها.

مـــثلها أعيش في ألم بسبب أم قاسية، وأخ متسلط، هل أدركت ذلك؟ وكما فعلت أنت وكتبت لها رسائل كثيرة، ها أنا أكتب لك.

أكتب وأنا في قلب الدائرة، في داخل مساحة بيضاء ساكنة، أطفو على البياض بين السكون.

في بـــاطن يـــدي اليـــسرى أحمل الكرة الأرضية، أرى الكنغارو يركض في براري أستراليا،

وألمح أهل الضباب يدخنون التبغ عند حافة الكون.

في بـــاطن يدك اليمنى أرى البحر... لا شيء غير البحر.. وأنا... التي أتجدد مع كل موجة.

ســـكون... سكون.. سكون يُغرق العالم، داخلي بياض شاسع. أنسلّ بعيداً، لأن الصداع النصفي يلازمني. بيننا صداقة قديمة منذ كنت أرتـــدي زي المدرسة، وأضم شعري في ضفيرة تختبئ تحت حجابـــي الأبـــيض. الغيوم لا تحجب الرؤية في كفي، ثمة مغنٍّ أسود يغني الجاز، رواية آمي تان(*)"نادي الحظ والبهجة" سقطت من رف المكتبة بفعل

(*) ولـــدت الكاتـــبة الـــصينية آمي تان عام 1952، في أوكلاند- كاليفورنيا، تم تحويل روايـــتها "نادي الحظ والبهجة" إلى فيلم سينمائي عام 1994، والرواية تتناول سيرة لمجموعة من النساء الصينيات، وفكرة الهوية، والعلاقة مع الوطن.

fb/mashro3pdf

فاعـــل. وجـــوه النـــساء الصينيات بدت مائلة وحزينة، فنجان قهوة بالحليب، كأس بيرة ذهبية، لي ولك. سنابل قمح خضراء وسط مزهرية مـــن الفخـــار الملون بالأخضر، الكراسي الخشبية حول الطاولة خالية دوماً، لا تنتظر أحداً، هناك شمعتان إحداهما ذابت قبل الأخرى، بجانب تمـــثال بوذا، ومجسم خشبـــي لفيل صغير، هناك أيضاً وعد مضمر أن تأتي لزيارتي هذا المساء.

مارغـــريت ما تزال تأتي إلي قبل الفجر بساعتين، غاضبة أحياناً، ومبـــتهجة في أحيان أخرى، تطلب مني ألا أتركك وحيداً، وأن أكتب لك كل يوم عن البحر الذي أحبته.

* * *

عند كورنيش الشاطئ، كانت مارغريت تجلس على حافة مقعد حجـــري، الوقت مساء، والهواء يميل إلى البرودة مع نهاية الخريف. البحر هائج، تماماً كما تحبه، ترى في حركته تلك، أفكارها الصاخبة. كانت وحيدة.

لا يمـــيل الناس للبحر حين يكشف عن وجهه الحقيقي. الناس يحلمـــون ببحر هادئ دوماً، لكنها لمحت شاباً يافعاً على بعد خطوات منها، لم يكن يراها، كان منشغلاً، ينظر باتجاه نافذة في الجهة المقابلة، تقـــف فـــتاة جميلة وشابة في وسط النافذة وتلوح له وهي تشير إلى أســـفل، فيما عينا الشاب في حيرة، تجولان المكان بسرعة بين نافذة الفتاة والشارع، بعد قليل ظهرت فتاة صغيرة في العاشرة من عمرها تقـــريباً، ناولت الشاب ورقة، ومضت مسرعة.. ظل الشاب واقفاً يقـــرأ الرســـالة، وبـــين حـــين وآخر يرفع نظره نحو النافذة، حيث صـــاحبتها ما تزال واقفة تنظر نحوه. وضع الشاب الرسالة في جيبه، ومضى مبتعداً.

fb/mashro3pdf

هـــل حددت له مكاناً ليلتقيا به؟ هل أبلغته بتخليها عنه؟ ماذا تحتوي تلك الورقة؟

فكـــرت مارغـــريت باحـــتمالات شتى، فيما تختلط الصور في ذهـــنها، عن حكايات أخرى، عرفتها، وعاشتها، وتبرق في ذاكرتها مثل علامات حمراء لا يمكن المرور بجانبها من دون توقف.

تذكر حين كانت صبية، وسارت بسرعة في شوارع كامبوديا، الوقت أول المساء. الطرقات غارقة بماء المطر على شكل برك صغيرة امتـــزج عند حوافها الماء بالتراب. غرقت قدماها بالوحل، وتبللت ثيابها، أحست أن مياه المطر تسللت إلى عظامها عبرحذائها الضعيف وتـــنورتها الـــتي لا تغطي ساقيها بالكامل. قررت التوقف عند بيت صـــديقتها تارا، لتختبئ من المطر. تعبر بقع الوحول بسرعة، تحاول التحـــرك بخفـــة خشية أن تنـــزلق على الأرض فيزداد حالها سوءاً. حـــين فتحت لها تارا الباب كانت تمسك بيدها ملعقة خشبية كبيرة علـــيها آثـــار من اللون الأبيض اللزج لطعام تعده. تجمع إخوة تارا الخمـــسة علـــى حصيرة قديمة على الأرض، كانوا يكتبون واجباتهم الدراســـية أمـــام قنديل الكاز، الغرفة معتمة، لكنها عابقة بالدفء. جلـــست مارغريت على الكرسي الوحيد الموجود في الغرفة، ناولتها تارا منشفة قديمة لتنشف وجهها وشعرها وثيابها مما علق بها من مياه المطـــر، ثم سحبتها من يدها لتقف إلى جوارها في المطبخ. كانت تارا تطهـــو حلـــوى الأرز بالحليب في قدر كبير، واصلت تحريك الأرز الـــذي يتـــصاعد مـــنه الـــبخار، حركت شفتيها جانباً دلالة على انـــــزعاجها مـــن التـــصاق الأرز في الوعاء، طلبت من مارغريت الجلـــوس على إحدى علب الحليب الفارغة الموضوعة على الأرض، ثم واصـــلت التحريك وهي تسألها عما حدث في لقائها مع العاشق.

fb/mashro3pdf

كانـــت عيـــنا تارا تلمعان من الإثارة والشوق لمعرفة ما حصل مع صديقتها اليوم، لكن مارغيت كانت تنظر إلى وجه صديقتها الأسمر، وإلى الـــبخار الـــذي يـــتعالى من القدْر، ليلامس وجنتيها البارزتين، وأنفهـــا الأفطـــس، فيبدو لمعان شفاف على بشرتها السمراء. كانت خـــصلات ســـوداء مـــن شعر تارا الخشن منفوشة إلى أعلى خارج المـــشابك المثبـــتة حول رأسها. لم تَقْوَ مارغريت على الكلام، كانت سابحة في تخيلاتها الخاصة، ظلت تراقب صديقتها وهي تسكب الأرز بالحلـــيب في أوعـــية صـــغيرة صنعتها من أوراق جوز الهند، كانت مارغـــريت تندهش كيف تقوم تارا بصنع مربع من ورق شجر جوز الهـــند الـــسميك على شكل طبق، تقوم بشبكه بإتقان، فيتحول إلى صـــحن يتم وضع الطعام فيه من دون أن يتسرب منه شيء، صفت تـــارا أطـــباق الحلـــوى على الطاولة المستطيلة المغطاة بمشمع قديم وممـــزق، بانـــتظار أن تـــبرد قليلاً قبل أن يلتهمها الصغار. كانت مارغريت تنظر إلى الأوعية الخضراء المملوءة باللون الأبيض وتتخيل الـــتفاعل اللطـــيف الـــذي سيحصل بين أوراق جوز الهند والأرز الـــساخن بالحليب، فكرت أن نقص أوعية الطعام دفع صديقتها إلى ابـــتكار هـــذه الطـــريقة للتحايل على الفقر. كانت تفكر في حياة صديقتها المعدمة، بينما تارا تتشوق للانتهاء من غسل الوعاء الكبير الـــذي طهت به الحلوى كي تجلس مع صديقتها الوحيدة للاستماع إلى مغامرتها، وما حدث في لقاء اليوم.

عـــندما جلـــست تارا قرب مارغريت في زاوية المطبخ المعتم، كانت تستمع لحكايا صديقتها عن العاشق الذي يغسل لها جسدها في حـــوض الاســـتحمام، ثم يحملها إلى السرير وهو يلفها بمنشفة شبه رمادية كانت بيضاء في وقت مضى، يداعب أصابع قدميها الصغيرة

fb/mashro3pdf

وهـــو يحاول سؤالها إن كانت تعرف أحداً غيره. كان العاشق يغار، يغار عليها كثيراً، ولا يخفي غيرته، وشكّه.

تذكـــره بحـــب وتبتـــسم، وهي تلمح الشاب المراهق يمضي بعيداً.

حـــين عادت مارغريت إلى البيت، كان يان أندريا في الحديقة، يلـــم الأوراق الـــصفراء المتساقطة من شجرة البتولا على الكراسي الخشبية الصغيرة. مارغريت فرحة وهي تحكي له كيف كانت شاهدة علـــى رسالة حب بين فتاة يافعة، وشاب ينتظر قرب نافذتها. ابتسم يان لها وهو يقول: "وهما لم يظنا أن هناك من يراقبهما".

ضـــحكت مارغـــريت وقالت: "لا، هما غير مشغولين بالعالم، لأنهما في عالمهما فقط".

لم تَحْكِ مارغريت عن الصور التي طفت في ذهنها لما شاهدت الحبيـــبين، أبعـــدت عـــن كرسيها زهرة بتولا حمراء طويلة وملتفة، وجلـــست قـــرب يان وهي تقول له: "هل تعرف أن أزهار البتولا الحمـــراء ذكـــورية، بينما الأزهار الخضراء أنثوية، انظر إلى الأزهار الخضراء كيف هي صغيرة لكنها ناضجة".

* * *

حين رن هاتفها، توقعت أن يكون مازن، لكن فاجأها صوت د. عـــبدالله، غاصّاً، فيه ندوب وحزن موجع. حكى لها عن موت أخـــيه الأصغر، قال لها إنه استشهد في الحرب وهو لم يتم العشرين بعـــد. تفجرت حمم بركانية في صوته وهو يقول لها: "أخذ روحي معه... لم يعد لي روح، كان ابني". في اللحظة التي كان يحكي فيها عـــن فجيعته، قالت له إنها ستأتي إليه في الحال، أحست بواجب أن تكون قربه.

fb/mashro3pdf

البيت الصغير الذي يسكنه، بدا لزينب جزءاً من حالة العبث التي تعيـــشها المدينة كلها. غرفة صالون صغيرة مشعثة، وضع فيها أغراضه التي نجت من دمار شقته المحترقة في الضاحية الجنوبية.

لم يكن في حاجة للدموع كي يعبّر عن فجيعته، رأته كما لو أنه أُصيب بالهرم في أسبوع واحد. أمسك يديها وهو يحكي معها، ثم وضع رأسه عند حضنها. ما إن مست أجفانه حتى أجهش بالبكاء في صوت مـــسموع، غمـــرها حس أمومي نحوه، وكما لو أن كل القسوة التي عزلته عنها، تمثالاً تحطم فجأة. كانت صورتهما تنعكس في مرآة ملصقة علـــى الحـــائط. وفي المرآة، رأت زينب ابتسامة مهجورة قديمة، رأت عواصـــف تلملـــم دمارها وتمضي. تمسد شعره، وتتمتم كلمات غير مفهـــومة. لكنها بكت حين قال لها: "تسلمت أغراضه، ثيابه، ساعته، وهديـــة صـــغيرة مـــن حبيبته احتفظ بها معلّقة في سلسلة حول عنقه. أتدرين ماذا أيضاً... بقايا طفولته ملفوفة في شال والدتنا الأسود".

مـــضت وتركته غافياً على المقعد. كان الوقت أول المساء، وهي تحـــس بالـــدوار، دوار الحرب اللانهائي، لكنها لم تكن خائفة. كانت تفكـــر بالمـــوت، الـــذي يأتي بخفة، ويمضي بخفة، آخذاً معه طفلاً – مقاتلاً– يحتفظ بين أغراضه بأثر من رائحة أمه.

لمـــا دخلـــت زينب إلى مدخل العمارة، وقبل أن تصعد الدرج، شـــاهدت أخاهـــا وســـام يقف مع امرأة تكبره بما لا يقل عن عشر ســـنوات، كان هناك حوار يدور بينهما؛ لكن الكلام توقف تماماً لحظة مرور زينب، التي ألقت التحية وتابعت طريقها إلى أعلى. حين دخلت إلى البيت كان سامر يحكي مع صديقه على الهاتف عن قراره الذهاب إلى الـــضاحية الجنوبية في أقرب وقت، أمها نائمة أو قابعة في غرفتها، لأن الكهـــرباء مقطوعة. جلست زينب في الصالون، لمحت وجه سامر

fb/mashro3pdf

الأبيض تنعكس عليه ظلال الشمعة المضاءة في الشمعدان، بدا لها طفلاً أيضاً، رغم تظاهره بالكبر. سامر يصغرها بعشر سنوات، لكنه يبدو أصغر من عمره الحقيقي، لذا تحسّ زينب نحوه بأمومة دائمة. كانت قادرة على استيعابه في أي موقف. تفهمت دوافعه حين أعلن فشله في الدراسة الجامعية، ورغبته دراسة الموسيقى، لم تنفع كل احتجاجات الأم في ايقافه، وحين شكّلَ مع أصدقائه فريقاً لعزف موسيقى "الروك"، قوبل بغضب عائلي من الأقارب جميعاً، ونظروا إليه على أنه مجرد شاب فاشل. لم يشارك وسام في تلك الأحداث، ظل معزولاً كما هو دائماً، وظلت الأم تلعن حظها العاثر أمام من تثق بهم من الأقارب والجيران.

كان وسام يعتقد دائماً أنه يستحق حياة أفضل، لكنها حياة طفيلية تستند إلى ما يقدمه الآخرون له، وهو لا يجد في هذا أي خطأ. تقلب في أفكاره كثيراً. في زمن ما أعلن أنه شيوعي، وأن الشيوعية لا بد أن تسود لأنها الحل الأمثل لتسير حياة البشر، لكن الشيوعية بالنسبة إليه تعني ألا يستحم، ألا يعمل، أن يطيل شعر رأسه، وأن يعيش حياة خالية من أي التزامات، ويتكل على أمه وأخته في تسيير أمور البيت. ثم يردد شعارات رنانة عن المشاركة وعمل المرأة، تلك الشعارات جاهزة ليستعين بها حين يتعرض لأي لوم، أو انتقاد بسبب تقصيره. حينها يتحدث ويعرض أفكاره بأسلوب متسلسل، متوافق مع حركة يديه وتعابير وجهه الرزينة، يبدو كأحد الحكماء والواعظين المهمومين بمصير الكون، يتمكن وسام من خداع الآخرين بسهولة، يُشعرهم أن الكون بسيط، وأن البرجوازية المتعفنة وفق تعبيره هي التي أفسدته، لذا يجب أن نكافح ضدها. لكنه كان يتواطأ مع الأم حين تحكي عن أصولها البرجوازية، ويوافقها ضمناً على نظرتها لأبيه بأنه سبب انحدارهم

fb/mashro3pdf

العائلـــي، بدايـــةً بـــسبب ميوله السياسية، وعمله صحافياً في جريدة يـــسارية، ثم موته المبكر، واكتشافهم أنه لا يملك أي شيء، وأن قطعة الأرض الـــصغيرة في ضيعته التي من المفترض أن تكون باسمه هي ضمن الأرض الـــتي تملكهـــا الأسرة ويزرعون فيها التبغ، ليبيعوه ويعيشوا من مـــردود محصوله. وسام كان مثل الأم أيضاً ينظر لعائلة أبيه بدونية لا يجاهـــد في إخفائها، إن حدث والتقى بهم صدفة. إنه كتلة من التناقض الأصـــم، لـــذا من الممكن أن يقوم بأي احتجاج عنيف لو حاول أحد الأعتراض على سلوكه، فهو الابن المدلل عند الأم.

* * *

يان..

أنـــت كتبتَ لها رسائل طويلة، جعلتها تفتح لك الباب. أين هي تلك الرسائل؟ ماذا كتبت بها؟

ســـأكتب لـــك لأحافظ على ذاكرتي من الفقد، من الدمار، من الخيبة. في كل ليلة أحاول النجاة بجزء قليل من ذاكرتي.

هل أُخذت منك ذاكرتك؟

هل تم تدميرها في يوم ما؟

مـــنذ جاءت الحرب، منذ غادرنا بيتنا، منذ مات أبو علي الفران تحـــت أنقـــاض الفرن وأخذ معه رائحة المناقيش، ضاعت ذاكرتي، لذا ينبغـــي أن أكتب لك، كي لا يغيب زمني، كي لا يتلاشى تماماً، ولا يبقى منه سوى خيط ضباب، لن يلبث أن يتبدد تماماً.

وفي هذا الزمن، الذي نسوك فيه، ولا يذكرون عنك سوى أنك كـــنت الحبـــيب الأخـــير لمارغريت، أواصل ربط ذاكرتي بذاكرتك، وأكتب لك.

عطر "كوكو شانيل" الذي لا تحبه أنت، تركته أيضاً في بيتنا.

fb/mashro3pdf

في لـــيلة ما كانت الخطوط الذهبية بارزة في عباءتي البيضاء، كنا نحـــتفل بعـــيد ميلاد أخي "سامر". قلت لك إني أرتدي عباءة بيضاء، وأرش عطـــر "كوكو شانيل"، ورددت بأنك لم تحب هذا العطر لأنه يذكرك بحزن صاحبته ويتمها، وأن هذه الرائحة بالغة الترف تنقل إليك برودة الميتم الذي عاشت فيه "كوكو" (*).

كنت أسمعك دائماً.

وأسمـــع تأوهاتك المسائية. أنت أيضاً كنت تسمعني حين أحكي لـــك عن إعجابـــي بالمراسل الحربـــي الأصلع. تضحك لأنك لا تراه وسيماً. ثم تنصحني أن أكتب له عن مشاعري لعلها تُفرحه.

ماذا أفعل الآن بكل نصوصي التي كتبتها قبل الحرب؟

أبطـــالي لا أعرف ماذا حَلَّ بهم؟ هل هم من النازحين، أم ماتوا تحت القذائف، أم ما زالوا تحت الأنقاض؟

مـــضى أســـبوعان وأنـــا أنتظر عودتهم. أقرأ روايات مارغريت دوراس، وأكتـــشف تفاصيل صغيرة في قدرتها على كتابة الحياة، كتابة الحرب والحب أيضاً.

أنا أيضاً أريد الكتابة لك وعنك. لمثل حكايتك وحكايات الحرب تكون الروايات.

لا تَخَفْ، صوت القذائف لن يعلو على همسك لي، وندبة الحرب الـــتي محت ما قبلها من ذكريات، لن تمحو معرفتي القليلة بك. منذ ذاك

(*) كوكـــو شـــانيل: مـــصممة أزيـــاء فرنسية، وتعد من ضمن أبرز شخصيات القرن العشرين، ومن أحد أسباب شهرتها عطر شانيل، الذي وصفته بالقول: "أريد أن أمنح النساء عطرا مصنوعا مثل الفساتين". وصار هذا العطر المركب من أشهر العطور العالمـــية. والجدير ذكره أن كوكو شانيل عاشت في الميتم، وعملت في الحياكة، قبل أن تنال هذه الشهرة.

fb/mashro3pdf

الـــصباح حـــين تركت على كتفي ذرات الماء البارد، واقتربت أنت لتلامـــسها بأصـــابعك، مررت بسبابتك على عنقي، قَبّلتني عند أعلى الكتف وخلف أذني ومضيت.

يـــان.. أســـتمع الآن إلى موسيقى "باخ". أحب "باخ". إنه يثير الفـــرح في قلبـــي، وتذكرني موسيقاه ببنات صغيرات يضحكن بنشوة تحت المطر.

سأنتظرك هذا المساء.

* * *

حكايـــة العاشق، ليالي كمبوديا، والأرز بالحليب الذي تطهوه تارا، قصص لم تنته منها مارغريت بعد.

هـــناك أيضاً حكاية المرأة العجوز والطفلة التي كانت كذبة في بدايـــتها. لكن كل تلك التفاصيل ها هي تعاود الظهور بقوة ضمن فوضى ذاكرتها.

في العـــتمة، تذكـــر مارغريت حين تسللت إلى السينما، كانت في الخامـــسة عشرة من عمرها، لا تملك ثمن بطاقة الدخول، أرادت الجلوس في الظلام، حيث لا يراها أحد، في الصفوف الخلفية التي يتجمع فيها كل من أراد التواري عن الأنظار. أربعة شبان عابثين تبادلوا الهمس عن البنت البيـــضاء الـــصغيرة، التي تدخل السينما وحدها. تعرف ما يقولونه. غمر كـــيانها كله خجل لا ينتهي. صارت كتلة من الخجل تسير على قدمين، لكنها تناست كل هذا في أضواء الشاشة التي تنعكس على الظلمة، فيبدو الحاضرون ظلالاً، وتتحول القاعة إلى مكان ساحر. انقباض شديد أمسك قلـــبها حـــين تذكّرت أن أخاها وأمها سينهالان عليها بالصفعات، لأنها تأخـــرت. سيظنان أنها ذهبت للقاء العاشق، وهذا السبب بحد ذاته، من وجهة نظر أخيها الأكبر، كافٍ لأن تتلقى لكمة على وجهها.

fb/mashro3pdf

حـــين خرجت من السينما، أمطرت السماء زخات خفيفة هذه المـــرة، سارت في شوارع كمبوديا الضيقة والمعتمة، كانت تتباطأ في العودة للبيت، هي لا تريد العودة، رغم أن عليها الوصول في أسرع وقـــت، لكنها تكره البيت. تعود لذاكرتها، الغرفة الضيقة التي تلتقي بها مع العشيق. لم يكن يكبرها بأعوام كثيرة، لكنه كان ثرياً. في بيتها حـــيث أمهـــا وأخويها لم يكن الطعام يكفي للجميع، ولم تكن هناك ثياب تليق بها حين تذهب للقائه. هو لم يأت للقائها اليوم، لذا عليها الـــذهاب للسينما. أي كذبة ستؤلفها كي تتجنب الصفعات بسبب تأخرها؟

كـــذبت عليهما، على أمها وأخيها الأكبر. ابتدعت قصة المرأة العجوز التي ترافقها طفلة صغيرة، فقد سقطت المرأة العجوز في بركة الوحل ولم تتمكن الطفلة من مساعدتها على الوقوف، تقدمت منهما مارغـــريت وســـندت المـــرأة التي بدت في غاية الضعف والمرض، رافقتهما إلى المنـــزل، ثم عادت بسرعة إلى البيت، أقسمت لهما أن هـــذا مـــا حـــصل فقـــط، لكنهما لم يصدّقاها، انهالت عليها الأم بالـــصفعات والـــشتائم، والأخ وقف يتابع المشهد مستلذاً بصراخ أخـــته. هي كانت تعرف أن هذا ما سيحدث، لكنها تصر على عدم الرضـــوخ لرؤى أمها في التعامل مع الحياة. تحس بالمتعة حين تذهب للـــسينما، وحـــين تلتقي بهذا العاشق السري، لا تتمكن من نسيان لمـــساته علـــى جسدها الصغير، أحبت مداعباته كثيراً، كما أحبت احتـــضانه لها، هذا الوله والرجاء بأن تبقى معه، كلها تفاصيل كانت تزيد من شغفها به.

الآن تدرك أن الشغف، يأتي من منطقة غير آمنة أبداً، الأمان لا يمكـــن أن يلتقـــي مع شغف مجنون، عرفت بعد كل هذا الوقت، أن

fb/mashro3pdf

شـــغفها بـــذاك العاشق كان في جزء كبير منه وليدَ لذة الاستمتاع بالخطر، والنجاة في كل مرة، ثم المعاودة من جديد.

* * *

مـــنذ بلغت أمها الستين خَفّتْ حدتها قليلاً، صارت أكثر تركيزاً على ذاتها وأمراضها التي لا تجهر بها. صارت الأم تنظر إلى زينب نظرة غريبة، إنها النظرة نحو الشيء الميؤوس منه، والمأسوف عليه، فقد يئست أمهـــا من الحصول على الابنة التي حلمت بها. وتقبلت أخيراً أن يكون عـــندها فرخ بطة قبيحة بدلاً من بجعة فاتنة. تدرك زينب أن أمها تمنت لو كانت مثل بنات خالها مايا، ونورما، وسيرين. تمنت الأم طويلاً أن تشاركهن زينب الاهتمامات بأدوات التجميل، الثياب، وآخر صيحات الموضـــة، وأن يكون لها الذوق الرفيع الذي تمتاز به بنات أخيها. زينب كانـــت بعـــيدة جداً عن فتيات عائلة أمها، وتنازلت لهن بسهولة عن المكانة التي يشغلنها في عاطفة الأم واهتمامها. لكنها كانت بعيدة أيضاً عن فتيات عائلة أبيها، اللواتي يعشن في الجنوب ولا تجتمع بهن إلا مرة في العـــام، وتجد نفسها بعيدة عن اهتمامهن بالأرض، والمونة، وموسم قطف التبغ، والحصول على زوج مناسب، وتمنياتهن ألا يكون من شبان الضيعة، بل من المدينة كي يرافقنه ويتخلصن من كل هذا التعب. لكن على الرغم من ذلك تكون على سجيتها حين تكون معهن، ولا تضطر إلى افتعال أحاسيس زائفة، وتبادل ابتسامات بلهاء.

حين كانت جدتها ما تزال حية، كانت زينب تُمضي عندها أياماً عـــدة ثم تعود إلى بيروت، تنام في الفراش نفسه مع الجدة التي تحتضنها لـــيلاً وتمسح على شعرها وهي تقول لها إنها تذكّرها بأبيها الذي غاب باكراً. منذ موت والد زينب فقدت جدتها حيويتها ونشاطها الدؤوب، جـــزء كـــبير منها لم يعد يبالي بالحياة، إلا حين كانت زينب تزورها،

fb/mashro3pdf

تـــدب فيها الحيوية، ويعود إليها النشاط، فتستيقظ باكراً لتعدّ لحفيدتها الشاي بالحليب، وتجهز طعام الفطور من البيض البلدي، واللبنة، والجبنة التي صنعتها بنفسها، والزعتر، وزيت الزيتون.

كـــان ذهابها إلى الجنوب لزيارة عائلة أبيها موضع انتقاد وسخرية من الأم، بخاصة حين اكتشفت علاقتها مع حامد ابن عمتها.

* * *

يان..

"في أغلب الأحيان أشعر بالفراغ، بفراغي الذاتي، وكأنني من دون هـــوية، الـــبدايات تُشعرني بالخوف، إلا أن السعادة تأتي مع الوقت، تتوقف ثانية كأنها الموت".

هكذا قالت مارغريت دوراس.

كانت تملي عليك كلماتها، وكنت تكتب.

لمـــاذا أحببـــتها كـــل هذا الحب؟ عشت معها ستة عشر عاماً، ورافقتها في رحلتها حتى النهاية.

في عـــام 1981 صرتما عاشقين. وبقيتما معاً حتى ودعتك صباح الثالث من شهر مارس عام 1996، الآن بعد أعوام على غيابها، ما زلت تحكي عنها.

يان... المقرب، البعيد بإصرار،

أين أنت الآن؟

سأجعل كلماتي ريشة من جناح سنونو تحط على نافذتك بغصن طري وترحل. لو لامست الغصن ستجده مبللاً بماء ندي.

يان..

لِمَ كتبت مارغريت لك هذه الكلمات؟

"سأحبك حتى موتي..

fb/mashro3pdf

سأحاول ألا أموت

قبل الأوان..

وهذا ما عليّ فعله"..

ها أنا أقترب من عامي الثلاثين، وأدرك أني لم أحصل على الحب الذي كنتُ أرجوه، ولم تتقاطع أحاسيسي بشكل تام مع أي أحد، لذا فتنتني قصة حبك لمارغريت، وزمن استمرارها.

صوتك الغائب ما زلت أحلم به، وما زلت أنتظر جملك المقتضبة، الموجزة، والمعّبرة في آن واحد.

أنت الذي تكتفي بقراءة رسائلي عن بعد، أشتاق لَلمس أصابعك النحيلة والجافة، حين ألتقي بك سأحتضن أصابعك بين يدي طويلاً.

* * *

يرعبها في ظلمة الليل صوت بكاء الأطفال الذي يعبر المسافات. لا تعـــرف من أين تتسلل هذه الأصوات لكنها تئن بوحشة مخيفة، أنين مـــتقطع يرشـــقها بكل ذكريات الموت التي عرفتها من قبل. إنه الأنين المكتوم لأصوات الأطفال الملتاعين لأسباب تجهلها، أصوات سمعتها من قـــبل حـــين مات والدها، وحين ماتت جدتها زينب التي أحبتها جداً. كانت أصوات الأطفال تختلط أيضاً بنواح مفزع لأمهات ثكالى، وبعد ذاك الـــنواح تـــرتفع أصوات مواء قطط متوحشة، مع هيجان خراف، وخوار أبقار هائجة، وكلاب شرسة، ووطاويط ترسم أشكالاً هندسية في حجب الظلام. لكن يظل صوت مواء القطط المزعج يتكرر بعد أن تصمت الأصوات الأخرى. لم تحب القطط، كانت تخشاها، منذ تلك المـــرة التي خدشت فيها القطة وجهها، عرفت أن القطط شرسات في بعض الأحيان.

موووو... ووووو...

fb/mashro3pdf

يييييييي. هوووووووو...

عيييييي... عيييييي...

همممممم... مممممم...

همهمـــات، تمـــتمات، أصوات تسمعها زينب، لكنها لا تعرف مصدرها.

هل هناك وهم في ما تفكر به؟

هـــل هذه هلوساتها السمعية التي كان د. رامي يكرر لها السؤال عـــنها: "هـــل تسمعين أصواتا غريبة؟"، وكان ردها دائماً بالنفي. ربما هذه هي الأصوات التي يقصدها. لكن لم تكن تلك الأصوات فقط هي التي تسمعها. صارت تسمع أغنيات خافتة قرب سريرها في ليال كثيرة، كمـــا كـــان هناك أشخاص ينادون عليها حين توشك على السقوط: "زينب.. زينب.. زينب". لذا ظنت لبعض الوقت أن مشكلتها تكمن في عدم القدرة على الفصل التام بين ما يحدث في سريرها ليلاً، وبين ما تـــراه في الواقـــع، وأن ثمة تسريباً يحدث من ذاكرتها الليلية إلى ذاكرتها الـــنهارية، وإلا لمـــا تداخلت التفاصيل في ذهنها إلى الحدّ الذي أفقدها القـــدرة علـــى التمييز الدقيق. أحياناً كانت ترفع يدها في الظلام وهي نائمة تتحسس طريق قلم رصاص وورقة تضعهما على المنضدة الصغيرة قرب سريرها، تُخرج يدها من تحت الغطاء وتكتب كلماتها في الظلام من دون أن تغادر السرير، أو تكلف نفسها بإضاءة النور الخافت قربها.

حين تقرأ تلك الكلمات في الصباح تعرف أن ذاكرتها مجرد ورقة شـــفافة، أو ورقـــة كـــربون يـــتم عبرها نسخ الأشياء، والتفاصيل، والحكايات، ما حدث منها وما لم يحدث، والممكن حدوثه أيضاً.

لا يهـــم أن اسمها زينب أو أي اسم آخر، لكن هي وحدها التي تكون في لحظات قليلة مجرد كائن شفاف تصب فيه أفكار مجهولة، من

fb/mashro3pdf

دوائـــر كبرى لا تعرف عنها شيئاً. وسط تلك التخيلات، رأت شبح مارغريت، وقادتها الأيام لمعرفة حكايتها، والكتابة عنها.

* * *

يان

عندما تنقطع الكهرباء ليلاً، تنقطع صلتي مع العالم، إلا عبر راديو صـــغير أحرّك إبرته بملل بحثاً عن أغنية تحملني لزمان آخر، لمكان ما لا توجد فيه حرب.

شمعـــة صغيرة تعكس خيالات على أثاث الغرفة، ثم صوت فيروز يغنّي:

"زعلي طوّل أنا وياك..

وسنين بقيت،

جرب فيهن أنا أنساك..

وما قدرت نسيت".

لماذا هذه الأغنية اليوم؟

لماذا علي أن أحكي لك قصة "حامد" أيضاً؟

كلما كان يأتي لزيارتنا كانت أمي تسخر مني وتراهن على تخلّيه عـــني في أقرب فرصة، تبرهن على نظريتها بأن "حامد" ابن عمتي لا بد أن يكون مثل أمه؛ لا يحمل لنا أي ود.

الصلات كانت مقطوعة بين أمي وعائلة أبـــي، ولم تكن تشجع علـــى زيـــارتهم حتى في المناسبات. العداء بين أمي وعمتي كان جهراً. وحـــده "حامـــد" صار يزورنا في بعض الأحيان منذ التقيت به خلال دراستي في الجامعة. كان في السنة الرابعة وكنت في سنتي الأولى، ورغم الجفوة بين العائلتين، ورغم إظهار أمي عدم رغبتها في استقباله، إلا أنه حاول أن يبني علاقة ألفة مع إخوتي بعد بداية قصة الحب بيني وبينه.

fb/mashro3pdf

بعـــد تخرجه بدأ "حامد" يتغير... لا أعرف السبب... انتهى كل شـــيء بشكل غامض، وبلا تصريحات محددة، انقطع عن زيارتنا فجأة، وانقطـــع عن القدوم إلي في الجامعة، ثم كان يترك هاتفه مغلقاً في معظم الأوقـــات. ظللت أحبه أكثر من عامين لكن في النتيجة صدّقت نبوءة أمي. لقد تخلى عني وسافر إلى أميركا. لم أدرك غاية كلامه حين كان يحكـــي عن السفر، وعن ضرورة الهجرة من لبنان، لم أعِ ما قصدَ حين كـــان يشكو باستمرار من غياب فرص العمل، لم أفهم بدقة أنه كان يمهد لي ويبرر ما سيفعله.

أمي كانت فرحة عندما أنهى علاقته بـــي، وكذلك عمتي التي لم تكن أقل عناداً وحقداً من أمي.

وحـــدي في العتمة الآن أستمع لفيروز تغني. وحدي ظللت أبكي لسنوات لأنني لم أخمن السيناريو الحقيقي للهجر.

بعد سفره بستة أشهر تزوج "حامد" من فتاة عربية تحمل الجنسية الأميركـــية، الآن هو زوج وأب لطفلتين "نور" و"سلمى". كنت أتابع أخباره من بعد.

أمـــا أنا فما زلت هنا أتفرج على خراب بيروت وأسمع نشرات الأخبار عبر راديو صغير.

لمـــاذا أتت الحرب هذا العام الذي كنت أراه مختلفاً عن أعوامي السابقة؟!

في هـــذا العـــام توقفت عن التدريس، تمردت على قرارات أمي، قلـــت لهـــا: "لا، ســـأبحث عن عمل آخر". للمرة الأولى أجرؤ على الرفض، هي اختارت لي دراسة الرياضيات، سخرتْ مني حين قلت لها إنـــني أود أن أكـــون مضيفة طيران، أن أسافر كثيراً، وأبتعد كثيراً ثم أعـــود. ربمـــا لم يكـــن حلمي الأصلي أن أكون مضيفة، كنت أحلم

fb/mashro3pdf

بالبحـــر، كنت أفكر في أمر ما يجعلني قريبة من البحر دوماً، ثم عرفت أنني لن أكون بحارة أبداً.

لم تكـــن أمي تهتم كثيراً بما أريده، تعرف أنني سأنفذ قراراتها في نهايـــة الأمـــر. في كـــل عام كنت أحقق لها حلمها، أنجح بتفوق حتى تخرجي في الجامعة، أمنحها الفرصة لتردد بفخر أنها سبب نجاحي، تماماً كما فعلت حين قدمت أوراقي للعمل في المدرسة التي تعمل فيها هي. وتم قبولي، ولم أتمكن من الرفض.

* * *

وســـط جراحات قديمة، تضاعفها حالة الثمل، أرادت مارغريت مواجهة الألم العصبـــي الذي يسببه وجود يان أندريا في حياتها. كانت تحـــدق في أشيائه الموجودة على الطاولة، علبة سجائر، ولاعة، ميدالية مفاتـــيح، وعلى المشجب هناك قميصه الأبيض، الذي يبدو يان حين يـــرتديه مفعماً بحيوية مبدعة. كانت تحس أن فكرة شبابه الوحشي في حد ذاتها تسبب لها الهلع، وتدفعها لطرده خارج هذا البيت. رغم أنها فعلت هذا أكثر من مرة، إلا أنه يظل هنا، يصر على البقاء معها.

إنهـــا تخـــشى غيابه، تخاف أن يقرر هو المغادرة ذات يوم، فلا تـــتمكن من منعه، لذا تحاول إبعاده باستمرار، لكنه لا يبتعد. أحبت رســـائله الـــتي كتبها لها، أحبت كلماته البسيطة التي يصف عبرها العلاقـــة مع الحياة، والحب، والموسيقى، والشغف. راقَ لها حوارهما الليلـــي المفتوح الذي لا يحده وقت، واستسلمت له وهو يساعدها على التخلص من هذيان أشباحها الصامتة عبر الكتابة عنهم. أحبت القهـــوة التي يعدّها لها في الصباح، والحساء الذي يطهوه من أجلها. كما ارتاحت من عناء التفاصيل الحياتية المطلوب منها القيام بها، صار يان يتدبر الأمر.

fb/mashro3pdf

أحبت مارغريت نـــزهاتهما على الشاطئ، وحديثها غير المحدود معـــه. حكـــت لـــه عن أيام كمبوديا، وعن ليالي فرنسا، عن أمها القاســـية، وأخيها الأصغر الذي مات وهو طفل أحبته كثيرا، وبكت حين فقدته، بكاء لن يتكرر طيلة حياتها. حكت له أيضاً عن عاشقها الأول، الذي لا تعرف ماذا حَلَّ به الآن.

ماذا حَلَّ بالعاشق البعيد في كمبوديا؟

هـــل مـــات؟ كـــان يكبرها بعشرة أعوام، كان في السادسة والعشرين، وسيماً، أنيقاً بأبهة رفيعة تتناسب ومكانة عائلته، ما زالت تذكر ولاعة سجائره المنقوش عليها بالذهب الحرف الأول من اسمه، وما زالت تذكر كيف كانا يقفان معاً تحت المياه المنسابة من الرشاش المـــصاب بالـــصدأ في ذاك الأوتـــيل الرخيص والمشبوه، كان يفرك جـــسدها بيديه، يغسل حلمتيها الصغيرتين، كما كان يمسح الدماء عـــنها في أوقات عادتها الشهرية، ويكتفي بتقبيل جسدها وملامسته بغرام، وهو يقول لها إن الحياة تتجدد في جسدها الآن.

كـــان العاشـــق يسألها في كل لقاء إن كانت تلتقي مع رجال آخـــرين، كانـــت تجيبه بالنفي. لكن هي الآن لا تفكر في سؤال يان أندريا عن سبب عدم لقائه مع نساء أخريات، بل عن سبب رغبته في البقاء معها.

* * *

يان..

عالمي يغرق

الأشـــياء تتـــبدل حـــولي بـــسرعة قصوى، تفوق قدرتي على الاستيعاب.

دوران.. دوران... جنون... آلة الحرب وقودها أجساد طرية.

fb/mashro3pdf

مكان قلبـــي صار فجوة سوداء، وكما لو أن وحشاً كبيراً التهم عـــضلة القلب عندي وترك مكانها فراغاً... وتركني أحيا هكذا؛ بجسد جراحه مفتوحة تواجه الشمس والهواء.

الأرض تلفظ أحشاءها إلى الخارج.

الأبنـــية تتساقط، كما لو أنها ديكور ورقي لتصوير أحد الأفلام، لكن الجثث الساخنة تفوح منها رائحة الدم.

وحدها السماء بدت بعيدة جداً، لا ينعكس على صفحتها الزرقاء الركام الذي حولنا...

وحـــدها الـــسماء لا تعـــرف الخراب الذي يشردنا، لأنها هادئة وصافية أكثر من المعتاد.

عالمي يغرق... وأرى الكل حولي يغرق. نساء ينمن على الأرض، رجـــال عجائـــز يحملون شيخوختهم كعبء ثقيل لا يساعدهم على التحرك. الصور التي تركض على الشاشة، تؤكد أن عالمي يغرق.

لم يعد هناك شيء أبحث عنه الآن. كل شيء تبدل.

لماذا لا ترد على رسائلي؟

العالم غريق، عالمي غريق..

صوت المرأة التي تحكي عن موت أبنائها الأربعة، يتردد صداه في قاع روحي وهي تصرخ.

أسمع رجع الصدى حتى الآن...

مـــن أي البوابات أدخل للمدينة التي لم أعرفها؟ متعبة أنا إلى حد التفـــتُّت. طائر هدهد ماكر نقر قلبـــي، وترك في صدري ثُقباً بحجم رصاصة.

هل علي دائماً إيجاد أسباب منطقية لدخولي حدود الرغبة؟

أنت تشرب قهوتك في مقهى على الرصيف، وأنا أنتظر.

fb/mashro3pdf

أصابعك قليلة البوح تشبه حكيماً صينياً عجوزاً لا يحمل ساعة.
سأظل أنتظر.

* * *

وقفت زينب تنظر إلى جسدها في مرآة الحمام. المرآة الطويلة والعريضة، عكست صورتها فبدت أكبر حجماً. في المرآة يبدو وجهها شاحباً جداً، ليس هناك حضور لأي لون سوى لون عينيها الأسود، وسط مساحة وجهها الصغير والحنطي. هناك هدوء في ملامحها، هدوء تراه مزعجاً، كما لو أنه الصمت التام. في مرآة الحمام نظرت إلى جسدها العاري والنحيف، صدرها البارز لا ينسجم مع ملامحها الغلامية.

كان شعرها الكثيف والمتدرج قد طال حتى غطى نصف ظهرها في وحشية لامبالية.

أحست برغبة كبيرة في قصه، ليصير قصيراً جداً، هي تربطه دائماً إلى الخلف تحت حجابها الأبيض، وقلما تركته منساباً. شعرها هو الشيء الوحيد فيها الذي يحظى بثناء أمها لغزارته ونعومة ملمسه. وسط هذا الشعر الأسود كان هناك شعرات بيضاء متوارية، لا يعرف بوجودها إلا صاحبتها.

بسهولة، بدأت زينب قص خصلات شعرها، حتى تجمعت قرب الحوض كومة من الشعر الأسود المقصوص من جذوره. قصت شعرها إلى الحد الذي لم يعد من الممكن الإمساك به، لم تكن تقص خصلاته وفق خطة معينة، بل بشكل عشوائي أخرق. رأسها صار خفيفاً جداً، وحين وقفت تغتسل تحت رشاش الماء أحست أن رغوة الشامبو تخترق جلدة رأسها، ودت لو أن بإمكانها نزع جلدة رأسها ورؤية ما يقبع تحتها. كانت زينب دائماً كلما رأت جمجمة، تتخيل أنها في وقت ما

fb/mashro3pdf

ستتشابه معها، وأن رأسها هذا سيكون عارياً من كل شيء، من الحجاب الأبيض الذي يغطي شعرها، ومن شعرها الذي تخفيه، ومن عينيها، ومن اللحم الذي يكسو وجهها ليكون وجهاً. لكن زينب كانت تتساءل عن مكان ذهاب أفكارها بعد سيلان اللزوجة وتخثر الدم الذي يختبئ داخل الجمجمة. تذكرت جارتهم خديجة التي أجرت عملية لنزع ورم في دماغها، وكيف كانت تحكي للجارات – كما لو أن هناك زجاجاً عازلاً يفصلها عن الحدث– مشبهة حجم الورم في رأسها بحبة الخوخ. صارت زينب تتذكر ورم رأس خديجة كلما شاهدت حبة خوخ، وربما منذ ذلك الحين امتنعت عن تناول الخوخ لأنها تخيلت أن كل خوخة ستتحول عصارتها إلى ورم صغير يتجمع في رأسها.

الآن تخلصت من شعرها الأسود، ومن الشعيرات البيضاء التي توارت في وسط رأسها، الآن صارت متحررة من ثقل تحمله، لكنها أحست برغبة قوية في نزع الحجاب وارتداء قرط كبير دائري والسير في الشارع. ستؤرخ لهذه الحرب بقص شعرها الطويل، وبنزع حجابها الأبيض، وحين تعود للحي الذي تسكن به في "بير العبد" بعد انتهاء الحرب، لن يعرفها أحد من الجيران، وربما يقولون: "مسكينة.. شو عملت فيها الحرب". ربما يحصل هذا، وربما لن ينتبه إليها أحد، وربما يتعاملون معها بتجاهل، ببرود كما ستفعل أمها حين ترى شعرها مقصوصاً، ستبدي دهشة للحظات قليلة، ثم تعود لطبيعتها، لكنها حتماً ستطرح عليها السؤال: "لِمَ قصصتِ شعركِ إن كنتِ تريدين نزع الحجاب؟". لكن زينب لن ترد عليها، بل ستحدق في عينيها مباشرة بلا خوف، لأنها تمتلك الآن رأساً جديداً ابتدعته الحرب.

* * *

fb/mashro3pdf

استيقظت مارغريت من رقادها فزعة، كان الوقت قبل الفجر بقليل، نظرت إلى الغرفة من حولها، أحست أن الأصوات التي تسمعها غير بعيدة على الإطلاق، منذ عادت من المستشفى ليلة أمس، وهي تحس أن يان أندريا عبث بالبيت في غيابها، واستقبل أصدقاءه الذين ما زالوا يقيمون في إحدى الغرف، لكن الإنهاك الذي تحس به يجعلها عاجزة عن التحرك والتفتيش. كان يان يغفو على الكرسي الهزاز بجوار سريرها، نادت عليه مرتين أو أكثر، وحين اقترب منها ليعدل من جلستها في السرير كما أشارت له، سألته بوضوح عن الأشخاص الذين يقيمون معهم في البيت، من هم؟ ومن أين أتوا؟ ولماذا؟ وكيف يسمح لهم بالإقامة في بيتها خلال غيابها؟

أكد لها يان أن البيت خال إلا منهما، لكن مارغريت أصرت على المشي خارج السرير والنزول إلى الطابق السفلي، طلبت منه أن يفتح الأبواب كلها، كي ترى من في الداخل، كانت تسمع ضحكات وقهقهات لأشخاص يتسامرون، ويرقصون على صوت موسيقى صاخبة. لم تهدأ مارغريت، ولم تقتنع بذلك إلا عندما طاف معها يان في أرجاء البيت حجرة حجرة، حتى إنه اصطحبها إلى الحديقة ليفتشا معاً عن مصدر الصوت، كانت تشد على يده بقوة، كما لو أنها تريد إثبات كذبه وخيانته.

في الصالون جلست مارغريت على الأريكة المشجرة، شاحبة، متعبة، أصابعها متيبسة وهي تود الكتابة، طلبت من يان أن يناولها ورقة وقلماً، خطت بعض السطور لكنها لم تَقْوَ طويلا على الجلوس، صداع يطحن رأسها، وداهمتها رغبة بقيء مفاجئ، أسندت يدها

fb/mashro3pdf

العجوز إلى المقعد وسارت بصعوبة نحو الحمام، فيما كان يان أندريا يجهز لها طعام الفطور.

* * *

يان..

صباح يوم جديد. إنها السادسة. أشباح المدينة ما زالوا تحت الركام. ألمحهم يتململون منذ الفجر، لكني لا أقوى على مساعدتهم. الحر قاتل. أفتح النافذة وأشتاق للبرد. البرد يدفعني إلى صدرك. أشتاقك كثيراً لكنك تمضي، تمضي بعيداً.

صوت فيروز يعلو من جهاز راديو صغير، عبر إذاعة محلية:

"أديش كان في ناس..
عالمفرق تنطر ناس..
وتشتي الدني...
ويحملوا شمسية..
وأنا بأيام الصحو
ما حدا نطرني"..

انتظرتك، لكن خراب المدينة أفزعك، فلم تأت.

يان..

هل جربت أن تترك بيتك فجأة بلا تخمين أنك لن تعود إليه مرة أخرى، ولن تجد أشياءك؟

لم يبق شيء من صور طفولتي، ولا صور إخوتي وأصدقائي حين كانوا صغاراً. لم تبق أية ورقة من رسائل الأحبة التي وصلتني أيام المراهقة، والتي كنت أخفيها في صندوق خشبي أحتفظ فيه بأشيائي القديمة.

fb/mashro3pdf

تكسرت زجاجات النبيذ الفارغة التي كانت ساندرا تنقش اسمي عليها في كل ذكرى ميلاد لي،

كل أشيائي صارت تحت الركام.

* * *

كانـــت الساعة الثانية ظهراً، حين دخلت زينب إلى غرفة أخيها وسام، بناء على طلب الأم، التي طلبت منها إيقاظه لأنها تود أن تناقش أمـــرا عائليا في الحال. كانت غرفة وسام عابقة برائحة الحشيش، وعلى الطاولـــة ميزت زينب شريط حبوب "الإيكزانيكس"، بين مجموعة من العقـــاقير الأخـــرى، يتركها إلى جانب جهاز كمبيوتره الخاص على الطاولة، المزدحمة بأكواب شاي ونسكافه، وفناجين قهوة، وطبق صغير فـــيه كومة من أعقاب السجائر، علب بيرة فارغة تحت الطاولة، وبقايا أكل من ليلة البارحة أو قبل ذلك. لم يكن يسمح لأحد بدخول غرفته أو تنظيفها إلا في الوقت الذي يختاره هو، لذا غالبا ما يكون مكانه غير نظـــيف، وأكـــسجين الغـــرفة يعبق برائحة السجائر، والنوم الهارب واللامبالاة الأصلية.

مـــا إن رفـــع رأسه ونظر إلى زينب حتى طلب منها أن تصنع له القهوة.

"بـــسرعة" قـــال، مبدياً انـــزعاجه من إلحاح أمه لحضور جلسة عائلية في هذا الصباح.

لا تـــرى زيـــنب في أخيها الأكبر إلا سبابة يده اليمنى التي يهزها دائماً في وجه الجميع حين يتحدث. تخيفها تلك السبابة، بل إنها سببت لهـــا الانهيار في كثير من المرات، حين ترى الأم تسكت عن كل أفعال وســـام، وتتـــراجع أمام تهديداته كلما هز سبابته في وجوههم متلفظاً بأبشع الألفاظ، ملوحاً بتركه البيت.

fb/mashro3pdf

مـــنذ قامـــت زينب بالعلاج النفسي تمرنت على تجاهله بهدوء، أخـــرجته مـــن دائرة حياتها، وتعلمت أكثر كيف تتوحد مع ذاتها. لم يحـــصل هـــذا بـــسهولة، كانت تحتاج لإرادة كبيرة كي لا تقوم الأم بالضغط عليها وابتزازها مادياً ومعنوياً إرضاء للأخ الأكبر.

الخـــوف من الوحدة جعل الأم تمارس على أبنائها سلوكاً نفسياً مسيطراً كي يبقوا معها، لذا لم تكن منـــزعجة لأن زينب لم تفكر في الـــزواج، ولهذا السبب تعاملت معها على أنها ستبقى إلى جانبها مهما كانـــت الأحوال، فهي تعرف أن زينب المترددة لن تقوى وحدها على اتخاذ أي قرارات مصيرية في حياتها. لم تدافع زينب عن علاقتها الأولى مـــع ابن عمتها حامد، اكتفت بمراقبة سخاء الكراهية المسمومة التي تم تـــبادلها بين أمها وأم حامد، عبر تبادل المراسيل عن استحالة الرضا عن تلك العلاقة، ثم في ما بعد انتهى كل شيء.

لم تبذل زينب جهدا أيضاً لجعل عائلتها تتقبل مازن. كل ما فعلته أنهـــا اكتفت بدعوته إلى البيت لزيارتهم، وحين لاحظت الفتور الذي أظهرته أمها ووسام، لم تجرؤ على دعوته مرة أخرى، كما أنها لم تناقش حقـــيقة علاقتها به مع أحد من العائلة. ظلت تقابله سراً، إلى أن طلب منها هو حسم أمرها، و لم تتمكن من الحسم.

جلـــس وسام على أحد المقاعد في الصالون، ممدداً جسده الطويل والعريض بكسل، مال برأسه إلى أسفل معبراً بشكل مسبق عن سأمه. كانت الأم ترتدي بنطالاً من القماش لونه بني، وقميصاً من اللون البيج. بدا عليها كما لو أنها تستعد للمغادرة، هذه هي الهيئة الأنيقة التي تحرص عليها دوماً. أعلنت أنهم سينتقلون قريباً إلى زحلة، لأن أعصابها لم تعد تحـــتمل الحـــرب وأصوات القذائف، ولأن الحرب كما يبدو لن تنتهي قريباً، لذا ستكون زحلة أكثر أماناً وهدوءاً، وبعداً عن خطر الحرب.

fb/mashro3pdf

بعـــد انتهاء الأم من كلامها، رفع وسام رأسه، وبدا وجهه خاليا مـــن أي تعبير، لكن صوته كان حاسماً، حين قال إنه لن يستطيع البقاء معهم في زحلة، لأنه لن يبقى في لبنان كله، فقد قرر السفر إلى الخليج. ســـيغادر إلى دمـــشق، ومنها إلى أبو ظبـــي، حيث يقيم خاله الذي يـــسكنون في بيته الآن، والذي ساعده منذ أشهر في الحصول على فيزا وتـــأمين عمـــل لـــه، لكـــن وسام حينها تراجع عن السفر، مستهتراً بمحـــاولات خالـــه، وتوسلات أمه التي رجته أن يقوم بتجربة السفر، كمحاولة لإيجاد شكل آخر لحياته. فهو منذ تخرجه في الجامعة لم يحرص علـــى الإنتظام في عمل مستمر أبداً، وإن فعل ذلك لأشهر قليلة كان يعـــيش بالطريقة نفسها مبدداً راتبه بين البارات، وبين أقساط السيارة الـــتي حطمهـــا بعد أشهر من شرائها في حادث ليلي على طريق الجبل حين كان ثملاً، وتولت الأم تسديد ما تبقى من الأقساط التي لم يدفعها ابنها.

انتابت الأم صدمة، حين سمعت ابنها يعلن عن قراره بالسفر، و لم ترد بأي كلمة، لأنه تركهم ودخل الحمام، في حين كانت الأم وسامر في حالـــة ذهول من قراره المفاجئ. علّق سامر بأنه يحتاج الذهاب إلى بيتهم لإحضار بعض الأغراض، بدا على الأم كما لو أنها لم تسمعه، أما زيـــنب فقد ظلت صامتة تتأمل مدى الانكسار والألم على وجه أمها الـــتي شـــاهدت فيه هزيمة تفوق هزيمة الحرب. رفعت الأم رأسها نحو زينب، كانت في عينيها دموع متحجرة.

* * *

يان..

ربما تمر أيام فلا أكتب لك. سنغادر غداً إلى زحلة. سأحكي لك عـــن هذه المدينة التي أحبها، عن أيامي الماضية فيها. قبل الحرب بأيام

fb/mashro3pdf

قلـــيلة كـــنا أنا وساندرا في زحلة، مشينا قرب البردوني، سرنا بمحاذاة النهـــر على درج حجري، نشمّ رائحة الطبيعة، ونلمس أوراق شجرة "الحرير". حين عدنا وقفنا نلتقط الصور أمام "كازينو عرابـــي" بجانب تمثالين لأحمد شوقي وعبد الوهاب. نأكل آيس كريم، ونمشي في شارع زحلـــة الرئيـــسي، ننتظر سيارة تنقلنا إلى شتورة ومنها إلى بيروت. ثم اتفقنا على القدوم مرة أخرى بعد أسبوع.

كنت أعرف تلك المدينة جيداً، كانت أليفة بالنسبة لي.

منذ أعوام كنا نمضي أشهر الصيف فيها، في بيت صغير ورثته أمي عن أسرتها.

في زحلة يكون الهواء باردا في الليل، ويترك لسعة لذيذة عند أول الفجـــر، وتلمح الندى على ورق الورد الطري، لكن في الشتاء هناك وجه آخر لتلك المدينة. أمضينا فيها أحد الشتاءات حين كانت بيروت ساحة معارك، واضطررنا – كما الآن – أن نغادر بيتنا.

تـــتغير رؤيتـــنا للأماكن، تتبدل علاقتنا بها مع الوقت، ومع كل شـــهر، ومـــع كل فقد، ربما لهذا السبب ما زلت أفتش كيف نشأت علاقـــتي الأولى معها، مع تلك المدينة (البلدة) الغامضة، المعلقة، الغافية علـــى كـــتف الجبل. تلك المدينة التي تنطوي على نفسها مساء لتشبه القرية، وتنفتح عند الصباح بحثاً عن جديد ما، عن مجهول لم يصل إليها من العاصمة.

البيت الصغير الذي يفيض بحيوية صيفاً، يصير بارداً وموحشاً أيام الشتاء. جدرانه مخزن للصقيع، ونوافذه وأبوابه ممر للهواء البارد، كانت المـــياه تنـــز من بعض الزوايا ومن سقف الحمام والمطبخ، وحين يهطل الـــثلج نُحاصر في البيت لأيام عدة. لم نعرف البرد كما عرفناه في ذاك الـــشتاء، كـــان الصقيع ينخر عظامنا، ويترك أطرافنا تتجمد. البيت لم

fb/mashro3pdf

يكـــن مجهـــزاً لمـــواجهة ريـــاح الشتاء وعواصفه، كان بحاجة لبعض التـــرميمات لتجعله صالحاً للسكن. أرشدنا الجيران إلى ضرورة تركيب مـــدفأة على الحطب أو المازوت. وضعت أمي مدفأة في كل غرفة، ما عدا حجرة الصالون على اعتبار أن أحداً لا يأتي لزيارتنا سوى قلة من الجيران وكانوا يجلسون معنا في حجرة الجلوس.

لم نكـــن أيـــضاً مجهـــزين بالمؤن الشتائية التي يخزنها أهل زحلة، مأكولات الشتاء قمح، برغل، عدس، مربيات، ولحوم مقددة، يخزنونها خوفاً من الحصار أيام الثلج، عندما تنقطع الطرق الرئيسية للبلدة. خلال الـــشهر الأخير من الصيف كنت أرى أسطح الجيران مفروشة بالقمح، الـــذي سيتحول إلى "مونة" يصنعون منها البرغل والكشك ويطحنون جزءاً منه ليكون دقيقاً لصناعة الخبز والكعك والحلويات.

عـــندما نـــــزور جارتنا "فادية" كانت تقدم لنا مع الشاي التين المجفـــف، والـــزبيب الذهبـــي، واللوز، وقطعاً من الكعك، مع مربى المشمش. أحس بالدفء في بيت "فادية"، دفء لم أعرفه في بيتنا.

في أول زحلة يوجد تمثال فتاة الكرمة، وفي وسطها تمثال العذراء مريم يبدو عالياً وبعيداً،

البـــيوت الحجرية القديمة على يمين الطريق، كما لو أنها معلقة في الجبل.

بين شهري تموز وآب تتزوج الفتيات ويغادرن بيوت آبائهن، تقام الأعراس لأيام ثلاثة، ويأتي إلى أطراف المدينة "النَّوَر" (*) الذين ينصبون خيامهم في كل صيف، ويرحلون مطلع الشتاء. منعزلون، يسكنون عند الأطـــراف، منغلقون على أنفسهم، لا يتكلمون مع سكان البلدة، وإذا

(*) الـــنَّوَر: هـــم الغجـــر، قـــوم رُحَّـــل يـــسكنون فـــي الخيام على أطراف المدن، أو خارجها.

fb/mashro3pdf

حاولـــت الكلام معهم يفرون منك. تقول أمي إنهم يخطفون الأطفال. كانت جدتي تحكي لي قصة "جبينة" التي خطفها "النَّوَر" من حضن أمها وهي نائمة. أصدّق كلام جدتي عن "النَّوَر"، لكنني لا أخاف منهم.

في أيلـــول الحزين تنـــزل زخات المطر الأولى... ورائحة الأرض الرطبة تعبق حباً في القلب... في الصباح أشاهد جارتنا "رجية"، وأشمّ رائحة مناقيش الزعتر التي تخبزها على التنور.

في شـــهر تشرين الأول، يرحل "النَّوَر". تُقطف الكرمة... تصنع النـــساء الزبيب، يجففن التين، يصنعن مربى التفاح والسفرجل، ويخبئن القمح لأيام الشتاء.

في شـــهر تشرين الثاني تنصب مدافئ الحطب استعداداً للبرد، وفي كانـــون الأول تأتي عواصف بلا رحمة. المدينة تنغلق على ذاتها، تنعزل مرة أخرى، أسمع صوت انهمار المطر الكثيف، أرى الصدأ الذي يتركه على الأبواب، ثمة وحل في الطريق، هناك برد كثيف.

رجـــية صديقتي العجوز ماتت في اليوم الأول من كانون الثاني. آخـــر مرة رأيتها في آخر أيام الصيف الماضي، كانت تقف بجوار شاب صغير يصلح لها شبابيك البيت خشية تسرب المطر في الشتاء، لن أرى "رجية" بعد اليوم، لن ألمحها وهي تمسك بمكنستها وتحركها وهي ترفع صـــوت الـــراديو على أغنية لوديع الصافي. ولن أشمّ رائحة مناقيشها المخبوزة على التنور.

كثير من الوجع تحت معطفي... الحياة شرك كبير، ولا يوجد ما يعوض الغياب.

في أحلامي أرى المطر يُغرق البلدة، نمر "البردوني" يفيض ويقتحم البيوت... كل شيء مبلل، وأجساد الأطفال خرق بيضاء مجمدة، فيما العجائز يتحولون إلى هياكل متجمدة.. كما لو أنه الطوفان.

fb/mashro3pdf

أهـــرب مـــن أحلامي، لكن الكابوس يعود إلي على شكل غبار كثـــيف يقـــتلع أوراق الشجر، ويدخل التراب في العيون، فتنحجب الرؤية.

كـــم مضى على موت "رجية"... لم أعد أعرف. ربما أشهر... ربما أعوام.

لكن الحياة تمضي، والمطر يبدل ثيابه مع كل شهر.

وأنـــا هـــنا أفتح شاشة كمبيوتري فأجدها بيضاء أيضاً. انتظرت رســـائلك، وطرحت عليك أسئلة كثيرة، عنك، عنكما، لكنك لم ترد على أسئلتي.

هل علي أن أنتظر طويلاً، حتى تأتي كلماتك التي أريدها؟

* * *

في سريرها، كانت مارغريت تفكر بكلمات يان أندريا، وبكل مـــا سمعـــته وشـــاهدته، لم تفهـــم ما حصل، ولم تعرف هوية هؤلاء الأشـــخاص الذين تجولوا في بيتها وهم يضحكون ويشربون البيرة، ويخططـــون للذهاب في نـــزهة على الشاطئ، لكنها متأكدة أن يان أنـــدريا كـــان معهم، أو أنه يقف على مقربة منهم. كان يتفرج ولم يـــشاركهم الحوار، ثم في ما بعد شاهدتهم يتمددون على الأرض، ما عـــدا فتاة شقراء كانت تقف جانباً غير مبالية بهم لانشغالها بتقشير برتقالة طازجة. ناموا في الغرفة الكبيرة المجاورة لغرفتها، أجساد طرية شـــابة تـــتمدد على الأرض – لسبب لا تعرفه. أرادت الوصول إلى الـــنافذة الواسعة في نهاية الغرفة، عبرت من فوق تلك الأجساد وهي تـــنادي علـــى يان. لم يحس أحد منهم بعبورها فوق أجسادهم، فقد كانـــوا متعـــبين ونائمين. حين وصلت إلى النافذة أرادت القفز إلى أســـفل، أحـــست بقوة شديدة تدفعها للنـــزول إلى الحديقة، لكن

fb/mashro3pdf

الحديقـــة بدت مختلفة أيضاً. كان هناك رمل ناعم على الأرض يشبه رمال الصحراء، كما رأت سنجاباً صغيراً، وكلباً مخططاً يشبه كلاب الصيد. رأت أيضاً ضفدعاً بحجم جرذ أثار دهشتها الشديدة لوجوده في هـــذا المكـــان. بدا لها الرمل الناعم مغرياً للسقوط، دافئاً إلى حد الاحتضان، نظرت خلفها نحو الأجساد الممددة على الأرض، وجدت عيوناً كثيرة تحدق فيها، ثم أيْدِيَ طويلة تمتد نحوها وتشدها إلى الخلف وهي تصرخ، وتدفع نفسها نحو النافذة، لكنهم لا يهتمون بصراخها. ثم فجـــأة ظهـــر يان أندريا من خلف تلك المجموعة، كان واقفاً عند بـــاب الحجرة الكبيرة، اندفع من بينهم جميعاً وأمسك يدها بهدوء، فيما الجميع يتراجعون إلى زاوية الغرفة، وهي تسير معه لتبتعد عنهم عائـــدة إلى غرفتها لأنها تحس بالتعب الشديد. ما يزعجها أن يان لا يذكر شيئاً من كل ما حصل، بل إنه لمح أن كل ما حكته ربما حصل نتـــيجة الأدويـــة التي تتناولها، هل يقصد أنها تعاني من هلوسة، من اضطراب يجعلها تتخيل أموراً لم تقع؟ قالت له إنها شاهدت معهم فتاة شـــابة شـــقراء، طويلة، ترتدي سروالاً قصيراً من الجينـــز وقميصاً أبـــيض، تأكـــل برتقالة وترمي بذورها على الأرض. لكنه نظر إليها واكتفى بهز رأسه من دون كلام.

* * *

في هذا الصباح المحتقن، غمامة سوداء في سماء بيروت، تبدو كما لـــو أنها ابتلعت السماء. كل الأماكن تبدو شبحية، والمدينة ليست هي المدينة.

صـــوت ســـيارة الإسعاف يخترق الشارع، تنظر عبر نافذتها إلى الـــضوء الأحمر يمر خاطفاً، فيما أوراق صغيرة جداً، تسبح في الفضاء، أوراق تتساقط من سماء مكسورة. لم تعرف زينب ماذا تحتوي الأوراق،

fb/mashro3pdf

إلا حين غادرت البيت، كانت تريد المغادرة، نـــزلت بحجة شراء بعض الأغـــراض، وحين سارت في الطريق، وجدت أن شوارع بيروت مليئة بـــأوراق صـــغيرة مرعبة، تحمل تهديداً بمزيد من الحرب. مناشير ألقتها الطائـــرات الإســـرائيلية – مكتوبة بعربية ركيكة– كي يقرأها أهالي بـــيروت، بهـــدف إخافـــتهم. تنظر إلى بعض المارة، ينحنون لالتقاط المناشـــير، يقـــرأونها ثم يلقون بها على الأرض، بعضهم تتجهم ملامحه، يعـــبس، يـــبدو عليه الاضطراب، وبعضهم الآخر يبتسم بسخرية، أو يحـــتفظ بالورقة في يده، ليناقش محتواها مع آخرين. في السوبر ماركت الذي تشتري منه الأغراض، بدت كما لو أنها منومة، يزيد من شحوب وجهها لون قميصها الكريمي. تضع في السلة أشياء ليست في حاجة لها تماماً، لكنها تمارس عبرها الرغبة في الحياة: شامبو للشعر، مزيل للعرق، معطـــر للجـــو، أنواع مختلفة من الشوكولا، مكسرات، قهوة وعصير معلـــب. حـــين دفعت عربتها واقتربت من المحاسب الذي يجلس وراء الطاولـــة، كانـــت عيناه عالقتين على شاشة التلفزيون الصغير، دخان أسود كثيف داخل الشاشة، والمذيعة تحكي عن اشتعال خزانات الوقود في مطـــار بيروت. حملت الأكياس وغادرت المكان، بدت لها السماء تزداد انشطاراً، واختفاء، خلف الغمامة القاتمة.

ضـــوء هـــذا النهار خافت، لكن ثمة سخونة تعبق في كل شيء حـــولها، في ذرات الهواء الثقيلة، وفي أوراق الشجر خضراء اللون، حتى الشجر يبدو جزءاً من مسرحية كبيرة، يتقن دوره فيها تماماً. يصمت، يتجهم، يعبس، يشمخ، وينحني وفق الحالة.

في عينـــيها رغـــبة بالبكاء، لن تقوى عليه الآن، سارت في طريق مختصرة يقودها إلى البيت، لأنها أحست بعطش شديد، وبثقل الأغراض في يدها، والحاجة إلى إلقاء نفسها على أقرب مقعد.

fb/mashro3pdf

عـــند مدخل المبنى، وقفت سيارة سوداء مرسيدس، لامعة، تجلس خلـــف مقودها المرأة التي شاهدت "وسام" يتحدث معها عند السلالم قـــبل أيام، والتي تصبغ شعرها بالأصفر وتكبره بسنوات كثيرة، تبادلتا نظرة سريعة عند دخول زينب المبنى، نظرة باردة، وغامضة، لا تكشف شيئاً محدداً.

التفـــتت زيـــنب إلى الوراء، فشاهدت المرأة تنظر نحوها، وتطلق زامـــوراً قـــوياً. بعد أن صعدت زينب أربع أو خمس درجات، التقت بأخـــيها وســـام ينـــزل ببطء وهو يحمل بثقل حقيبة جديدة، متوسطة الحجـــم، جمـــع فيها أغراضه، استنتجت زينب أن تلك الحقيبة اللامعة أحضرتها له المرأة التي تنتظره في الخارج. نظر وسام في عيني أخته، رأته مرتبكاً، وفي عينيه رعشة خوف.

"رح تسافر؟".

ألقت زينب سؤالها، وهي على يقين من الإجابة. هز وسام رأسه، وهـــو يمد يده ليسلّم عليها، فأردفت تسأله بعبارة أخرى وهي تبكي: "كنت رح تسافر من دون ما تودعني؟".

حـــين سمـــع الـــزمور للمرة الثانية، مد وسام يده ليسلّم عليها ويحتـــضنها، مردداً كلمات تقليدية تتكرر في مثل هذا الموقف. ثم حمل حقيبـــته وسار مبتعداً. ظلت زينب تنظر نحوه وهو يصعد إلى السيارة السوداء، ويبتسم للسيدة التي تجلس بجواره، ثم يمضيان معاً.

في البيت، كانت أمها تجلس قرب شاشة التلفزيون، تتابع نشرات الأخـــبار، كانت صامتة، يبدو عليها الألم الشديد، إلى الحد الذي دفع زيـــنب للجلـــوس قربها وقول كلمة واحدة: "ما تزعلي". هزت الأم رأســـها، ولم تردّ، لم يكن بينهما مواقف حميمة، لكن الأم اندفعت في بكـــاء مفاجئ، لم تَقْوَ زينب على تحمله، إذ قلما شاهدت أمها تبكي،

fb/mashro3pdf

فمـــضت نحو الداخل. كانت غرفة "وسام" مفتوحة، وحقيبة رمادية، قديمـــة، فارغة متروكة على الأرض. بدت الغرفة شبحية أيضاً، بل إن البـــيت كله في نظر زينب بدا مسكوناً بكائنات أخرى من بُعد مختلف تسبح في الهواء، وتراقب بصمت ساخر كل ما يحدث معهم.

* * *

يان..

هـــل أكـــتب لك؟ هل لا أكتب؟ كلما هممت بالكتابة، يتردد صدى السؤال نفسه.

في المـــرآة أرى وجهـــاً جديداً لي، وجهاً لم أعرفه من قبل، زمني يتـــصدع الآن، وأنا أراقب وأنتظر. أراقب بعيون واسعة كل ما حدث ويحدث حولي. هناك غرق كثيف، لا أحد يعرف سببه، أرى ماء البحر يتـــسلل للمدينة، يبلل أقدام الجميع لكنهم لا يعرفون، لا ينظرون إلى الأرض لأنهم مشغولون بمعرفة ما يحدث في السماء.

جـــارتي التي انتحرت قهراً قبل عامين بسبب خيانة رجل أحمق. ربمـــا لم تنتحر تماماً. لم تكن تعرف أن العالم سيغرق. لو عرفت، ربما أغلقت حنفية المياه قبل أن تموت.

صـــرت أفكر كثيراً بلحظات موتي، أفكر كيف ستكون؟ أين؟ وكيف سيكون لونها؟

هـــي أيـــضاً كانت تفكر كثيراً في الموت، في أواخر أيامها قالت لك:

"أشعر أنني تائهة..

والموت هو البديل..

إنه مرعب..

ما عدت أمتلك رغبة لبذل الجهد..

fb/mashro3pdf

لا أفكر بأحد..

فما بقي قد انتهى".

لم أصـــدّق مارغريت حين قالت: "إن الكحول أقوى تأثيراً من الموسيقى والكتابة".

مـــدام تريز قالت لي البارحة إنه ينبغي علي الصلاة، وأن أضيء شمعة. لكني لم أصل.

أنظـــر إلى وجهـــي في المرآة، أكتشف غربتي عنه وآثار جراح، وجهـــي يـــصغر وعيـــناي تتسعان، تضخمت عيناي لتتسعا لمشاهد الحرب.

أشـــياء كثيرة راحت. صباحات أيام الآحاد الكسولة المتلازمة مع رائحـــة النعـــناع الأخضر المرافق لطبق الفول، وأيضاً صوت "الشيف رمزي" وهو يحكي بحب عن أنواع الأطعمة التي ينوي إعدادها.

أشياء كثيرة أصاب ذاكرتها العطب.

يان..

سأكتب لك هذه الرسائل.

لن تضيع.

ولن أسمح للحرب أن تلتهمها.

سأهرّبها في داخلي، وأرسلها لك، لأن ما بيني وبينك يؤرقني.

ما بيني وبينك، أجهل أين أخفيه؟

حاولت أن أخفيه في جذع شجرة سنديان هرمة، لكني انشغلت بملامـــسة الـــصمغ الهارب من مسامات الشجرة، انشغلت بالعبث في جـــذع الشجرة الهرم، المحفورة على سطحه أسماء عشاق أرادوا تخليد قصـــصهم بنقش الحروف الأولى من أسمائهم، مع قلوب وسهام صغيرة تنحرف عن مسارها.

fb/mashro3pdf

ما بيني وبينك أين أضعه، وغصن شجرة من خلف سور مجهول، تسقط منه ياسمينة شاحبة، أتذوق أوراقها البيضاء بطرف لساني، مُرّة جداً، سأصاب بالتسمم، لأني أعرف يقيناً أني سأذهب ذات يوم ضحية اللون الأبيض.

* * *

قررت رؤية مازن. سارت مساء، في شارع صغير متفرع من شارع "الجامعة العربية"، متجهة نحو بيته، شاهدت كلباً أسود نحيفاً، يجلس باطمئنان في إحدى الزوايا غير معني بتفاصيل الحرب. غمرت زينب قشعريرة خفيفة حين حدق فيها الكلب بعيون ثابتة لا تحيد. أشاحت بوجهها بعيداً عنه، وهي تتخيل أن الكلب الأسود سيشب ليهاجمها من دون رحمة. لا تعرف من أين جاءتها هذه الفكرة، لكنها لم تَقْوَ على طردها، لذا صارت تسرع خطواتها وتتخيل أن الكلب سيلاحقها كما في أفلام الكرتون. لدقائق صارت مشغولة بالكلب الأسود أكثر من الحرب، حينها بدا لها كل شيء في الشارع يتحول إلى لون قاتم لا تعرفه. الشارع كله صار مثل مستنقع حوله سبخات تشد البشر إلى أسفل، وعند الزوايا بعوض كثيف يحوم حول الرؤوس ليمتص منها الدماء. في زاوية الشارع كان هناك خزان ضخم وقفت قربه، ثم نظرت إلى الخلف، رأت ظلال البيوت الشاحبة، شبه المهجورة. بدت لها المدينة في تلك اللحظات، مدينةً مسحورة بفعل ساحرة، قرأت في سمائها تعاويذ وتمائم كي تحول كل ما فيها إلى اللون الرمادي. حين وصلت قرب المبنى الذي يسكن فيه مازن، صعدت السلالم وهي تلهث، طرقت بشدة على زجاج باب البيت الخشبي الصغير، المتآكل عند أطرافه، والمطلي بدهان أبيض. لم تسمع أي رد، فقط شاهدت بقايا الطلاء تنز على الأرض بوجع. نزلت السلالم

fb/mashro3pdf

وهي تحس بهزيمة تخصها وحدها. غمرتها رغبة حارقة بالبكاء، بالنشيج هنا عند أطراف السلالم الغريبة. دفعت نفسها خارج المبنى لتواجه الشارع الأسود من جديد.

* * *

يان أندريا

الساعة، منذ أمس، متوقفة عند الثامنة والنصف. كلما مررت أمامها كان الوقت الثامنة والنصف. إنه وقت ينفع دائماً للبدايات، لأول النهار، لأول الليل.

صديقي المشغول بالوقت، بالساعات، بالنهايات المبكرة، لم أجده. إنه مشغول عني، مشغول بالحرب، أو بحب يمنعه من القلق. هل يبعث الحب فينا شيئاً من الطمأنينة بالبقاء قليلاً، بنسيان ديمومة الزوال.

لم أتمكن البارحة من فتح زجاجة النبيذ الأبيض، انقسم غطاؤها الفلّيني إلى نصفين، وظلت رغبتي عالقة في الوسط، وجسدي أكثر اشتياقاً.

لكن ماذا يعني الوقت إن لم يكن ثمة انتظار سينتهي، تماماً كما يُنهي حرف الياء مسيرة الحروف.

أنت الساعة الثامنة والنصف، أنت الرغبة العالقة في وسط زجاجة نبيذ.

هل يهم كثيراً أن نحكي عن رغباتنا، أمنياتنا الغامضة، أحلامنا المجهولة، كف يدنا اليسرى حين تنبسط فتُسقط منها كثيراً من الحظوظ والنوايا. أغلق كف يدي. أرى أنها تشبه قلبي المرتعش بحب لا مكان له، حب لا علاقة له بالهدوء أو العاصفة، بالحنين أو الشجن، حب يشبه انخطافاً نحو نجمة، أو انجذاباً إلى آخر نقطة في هاوية. لذا ليس عليّ

fb/mashro3pdf

تقـــديم كثير من التفسيرات، لأني أستسلم لقوة تتجاوزني، وإن لم أترك نفسي لها سأسقط على الأرض ميتة الروح.

فهـــل هناك من يستطيع معاتبة السماء حين تمطر بغزارة، أو حين تهب عاصفة، أو يهطل ثلج!

في هذه الليلة، أود كثيراً أن أكتب.

* * *

أرادت مارغريت الجلوس في الحديقة، لكنها لم تَقْوَ على السير إلى الخـــارج. هدوء كثيف تسبح فيه الغرفة. كم الوقت الآن؟ كل الساعات المعلّقة على الجدران متوقفة عن العمل، هي التي طلبت من يان أن يُنهي هذه العلاقة السخيفة مع شئ اسمه "وقت"، لكنها بحكم العـــادة تتساءل أحياناً عن الساعة التي جاهدت لتتحرر منها، ثم هل هـــناك فـــرق بالنسبة لها لو كانت الساعة الثامنة صباحاً أو الثامنة مساء؟! ما الفرق سوى أنها ترغب الآن أن تجلس في الحديقة لتراقب تلـــك الكائنات المتحررة من وعيها، من كل هذا العبث غير المجدي. يان أندريا في المطبخ يُعد البطاطا المهروسة، ويدندن بأغنية تشبه لون العـــشب الأخـــضر. الأغنيات في ذهنها تتشكل وفق الألوان، هناك أغنـــيات ورديـــة، ذهبية، بيضاء، هناك أغنيات بألوان واضحة أو قاسية، وهناك أغنيات ملونة، أو باهتة، رثة، بألوان لقيطة. ما زالت مثلاً تذكر أغنية داليدا التي تحبها كثيراً: je suis malade(*).

تلـــك الأغنية كانت من اللون الذهبـــي، رغم كل ما فيها من كآبة.

نادت على يان أندريا، بصوت قوي رغم ضعفها.

(*) أغنـــية فرنـــسية للفنانة داليدا يقول مطلعها: "لم أعد أحلم، لم أعد أدخن، لم يعد لدي قصة، أنا مريضة جداً...".

fb/mashro3pdf

أصابعها ترتجف وهي تمسك بكأس النبيذ، يهتز السائل الخمري في قعر الكوب، يتمايل ببطء مثل بحر أفكار يحتضر. جلس يان قربها على الكنبة المشجرة، وفي يده طبق الطعام الذي أعده لها، مال نحوها ممـــسكاً ملعقـــة طعام صغيرة من هريس البطاطا المسلوقة، أشاحت بـــوجهها بعيداً مثل طفلة مدللة ترفض الطعام. بدأت تردد كلمات أغنـــية داليدا، ثم توقفت فجأة عن الغناء وطلبت منه أن يأخذها إلى الحديقـــة. استندت إليه وهما يسيران ببطء خطوات معدودة، تجلس هـــناك قـــرب شجرة التوت لتراقب دودة القز الصغيرة وهي تلتهم ورقة التوت، وتمضي لتنسج قدرها.

* * *

يان..

كم مضى من الوقت منذ كتبت لك آخر مرة...؟

أيام عدة، لا شيء غير الحرب والموت...

لم نغادر إلى زحلة، لأن أشياء كثيرة حدثت.

"وسام" تركنا ومضى. سافر وحده.

"ساندرا" ماتت..

لم تعد "ساندرا" تسير على هذه الأرض وتملؤها مرحاً،

لن تلتقط الصور بعد الآن، بعد أن صارت هي الصورة.

عرفت خبر موتها على مراحل، في نشرات الأخبار لم يعلَن اسمها في البداية، لكن كل القنوات اتفقت على موتها.

صـــورتها وهـــي محمولة على سرير نقل الموتى ومغطاة بغطاء أبيض، والخبر يهدر في رأسي: "مقتل مصورة صحافية في ضاحية بيروت الجنوبية".

ذهـــبت "ســـاندرا" لتلتقط صوراً للمكان، فصارت هي الحدث والصورة.

fb/mashro3pdf

روحي كتلة منتّفة متشظية من الوجع.

المـــوت يزحف نحوي ببطء. أسأل أمي عن سامر، تخبرني أنه مع رفاقه خارج البيت.

"أيـــن مع رفاقه؟"، أسالها بحدة. لكنها لا ترد علي، الآن بعد أن تجـــاوزت الستين صارت أكثر برودة وصمتاً وأقل اكتراثاً بالتفاصيل، تتركني وتمضي.

أجهش بالبكاء وحدي، أخشى على سامر من الموت...

الموت اقترب من عالمي، وحين يقترب أعرف أنه لا يكون جزعاً، ولا رحيماً في اختياراته.

بعـــد مـــوت "ساندرا" لمن ستعطي مدام تريز فائض الحنان الذي لديها؟

كـــيف رحلت ساندرا وحدها وتركت "فادي" بعد قصة حب طـــويلة تجـــاوزت خمـــس سنوات... لماذا رحلت الآن بعد أن وعدته التجهيز للعرس، عرسهما معاً...

اختارت ساندرا الانضمام لقافلة "شادي" في أغنية فيروز. نامت مبكـــراً جـــداً، لتترك الشتاء الذي تحبه يمر من دون أن يجدها تركض بكاميرتها لتلتقط تفاصيله.

كـــل صورنا القديمة تحتفظ بها ساندرا منذ أعوام، لا يوجد على جهـــاز كمبيوتـــري سوى بعض الصور القديمة التي سرقتها من دون علمها، صورة ساندرا والسلك الحديدي في فمها صورة لا تحبها هي، وكانت تُضحكني. صورتنا معاً ونحن نقضم من منقوشة الزعترنفسها، صـــورة في المدرســـة خلال مسرحية عيد المعلم حين كنت أقلد مديرة المدرسة وساندرا إحدى التلميذات، ثم صورتي معها ليلة الميلاد أنا وهي وفادي وماما تريز، أمها.

fb/mashro3pdf

المكـــان الذي كانت تشغله جانبـــي سيظل مقفراً، وأنا ما زلت أضحك على النكات التي لم تَحْكِها بعد...

لمـــاذا أنا بهذا الغباء إلى حد أنني لم أخمن إطلاقاً احتمال رحيلها فجأة؟

لمـــاذا لم آخذ صوراً كثيرة لنا حين كنا معاً؟ لماذا لم أضع سوى بعض الصور على جهاز كمبيوتري؟

ماتت ساندرا... حقيقة أخرى عليّ تقبُّلها.

حقـــيقة تشبه بشاعة الحرب ودمويتها. تشبه موت أبـــي وقسوة أمي التي لا أتمكن من نسيان صفعاتها على وجهي، وأنا طفلة.

الحرب جعلتني أرى أمي تبكي موت ساندرا... ربما تبكي موت ســـاندرا، وتبكـــي وحدتها، وتحزن على غياب ابنها البكر الذي اختار السفر وقت الحرب، ربما تبكي خراب بيتنا، وما ينتظرها من انتظار... الحـــرب جعلـــتني أشاهد دموعها. آخر مرة بكت فيها ربما كانت يوم وفـــاة أبـــي. دموع أمي تجعلني أصاب بالدهشة، دموعها القليلة تؤكد لي أنها تستطيع البكاء أيضا مثل كل البشر. هل علي أن أعترف لنفسي الآن أنها امرأة مسكينة... ربما لأن دموعها الاستثنائية تنقلني للتفكير بها وباختلافي عنها.

أحتاج أن أصهر عقلي من الداخل، كي أذيب طبقات سميكة من الذكريات الحارقة. يحدث هذا حين أكتب، حين أحكي معك، وحين أعيد تشكيل حكاية لم أعرفها تماماً. حكايتكما.

* * *

عادت إلى زينب نوبات الأرق الطويلة، والصداع النصفي. الرقاد في سريرها لانتظار النوم يسبب هجوما بربرياً لكل الموتى الذين عرفتهم، تـــتداخل أصواتهم، وتشتبك، فلا تميز بينهم. حينها تتسلل من سريرها

fb/mashro3pdf

كـــي تُـــدخن في الصالون، أو لتجلس إلى شاشة الكمبيوتر إن لم تكن الكهرباء مقطوعة. كان هناك كلمة عريضة في حجمها وتمددها تزحف إلى ذهـــنها بسرعة، كلمة تسببت الحرب في حضورها، "الاحتراق". فكرت أن "الاحتراق" ينجم عن حرارة مفرطة، غليان، اشتعال، تفجر حمـــم غلت في الداخل بما فيه الكفاية، قبل أن تنفجر. لكن الاحتراق عـــندها الآن يوازي العجز، وعدم القدرة على تغيير شيء. إنه إحساس فردي جداً لا يمكن العبث في تفاصيله لأنه كتلة واحدة حارقة. في مثل هـــذه اللحظـــات تنـــسى كل ما كان يقوله د. رامي، وما تعلمته في جلسات التأمل عن السكون الداخلي، ومراقبة أفكارها من دون تدخل. لم يكن بإمكانها فعل أي شيء من هذا، لأن الأفكار كانت تنثال عليها فـــتدفعها إلى البكاء من دون صوت، بكاء مكتوماً، يعبر عنه من خلال خـــط دمـــوع متواصل. أحست بحاجتها للصراخ عالياً حين لمعت في ذهنها صورة والدة ساندرا وهي تحتضن "فادي"، ويشهقان بالبكاء معاً. كلما تذكرت موت ساندرا راودها إحساس عبثي بأن هذا الموت ليس إلا مـــزحة أخرى، وأن ساندرا ستعود حتماً، ستقرع الباب، وتدخل وهي تحمل حقيبتها الكبيرة التي تحتوي كمبيوترها المحمول، والكاميرا، وأشياء أخرى. كانت تحس أن موت ساندرا حيلة قدرية كبرى لمعرفة قدرتها على عدم الانهيار. سحبت نفساً طويلاً، وهي تضع قدميها على الأرض لـــتغادر الغرفة. في العتمة أحست أن قدميها شديدتا الجفاف، وكما لو أنها حين لامست الأرض احتاجت لأكثر من عشر ثوان كي تحس بملمس الأرض على باطن قدميها. سارت حافية، وهي تعبر بجانب أمها التي بدت نائمة بعين واحدة.

تحـــس زينب أن الأم يقظة على الدوام، وأن أي حركة تقوم بها للـــبحث عن شيء ما في الغرفة، أو للانتقال إلى الصالون يخضع لرقابة

fb/mashro3pdf

أمهـــا الـــتي لا تـــنام. تذكرت زينب أن التقدم في السن ربما يسبب اضطرابات في النوم. وأن الحرب، وسفر وسام، وموت ساندرا، أسباب حقيقـــية تـــسبب حزناً شاهقاً لا يرحم. لكن في تلك اللحظات تمنت زيـــنب ألا تقوم أمها وتسألها عن سبب يقظتها في هذا الوقت، كل ما تمنـــته أن تجلـــس وحـــدها في الصالون كي تراقب الشارع في العتمة وتكتب.

* * *

يان...

في العتمة، أقبض على نجوم مطفأة، كل ليلة تزداد نجمة. أمرٌ محزن أنك لم تبصر نجومي المضاءة.

أغـــير الأمـــاكن، أبدلها، ألعب لعبة الألوان، أحكي لنفسي قصة قـــوس قـــزح، لا شيء يتغير. رعب يتراكم.. طبقاته سوداء، بين كل طبقة وأخرى تنبثق وجوه لزجة ومخيفة، يمضي ليل طويل. أغمض عيني باتساع في محاولة مني لأرى العالم.

عـــند الفجـــر، تتسلل إلي رائحة خبز ساخن. فرح عابر ينـــزع طبقات الرعب.

الآن قبل الفجر بقليل، أفضل الكتابة لك.

هـــل تحب وقت الفجر؟ هناك مزيج رائحة حلوة يبعثها الفجر في العـــالم. رائحـــة لا تلـــبث أن تتلاشـــى بعيداً لتعود في فجر جديد. يقظة ممتعة تبث خدراً في الحواس وتستمر كلما استسلمنا لمراقبة رحيل الليل.

من نافذتي التي تطل على المدرسة المسكونة بالمهجرين أراقب فجراً آخـــر، أناساً ينامون في العراء، وأمّاً وطفلة صغيرة لا تتجاوز الخامسة غافيتين على الأرض.

fb/mashro3pdf

ماذا لو كان الفصل شتاء؟ ماذا لو كانت الأرض مبلولة، والسماء ترسل سيولها؟

ماذا لو استمرت الحرب حتى الشتاء، ولم يعد هؤلاء الأطفال إلى بيوتهم، ولم يلتحقوا بمدارسهم؟

إنها الأسئلة التي تلحّ علي يومياً وأنا أراقبهم من نافذتي.

قبل موتها، فكرت ساندرا بإقامة معرض لصور الأطفال خلال الحرب، كانت تأخذني معها لنطوف على المدارس والحدائق والمستشفيات تلتقط لهم الصور وهم يلعبون ويأكلون ويتحدثون عن الحرب. كانوا يفرحون برؤيتنا يقتربون من الكاميرا يلوحون لها، وكما لو أن ساندرا تمارس معهم لعبة يحبونها، ثم يسألوننا عن الحرب، متى ستتوقف. يظنون أننا نعمل لإحدى الفضائيات، وحين نقول: "قريباً"، يضاعفون أسئلتهم نحو تفاصيل أعمق عن الحرب.

من سيعرض هذه الصور بعد موت ساندرا؟

من سيقدّم للعالم لقطات حقيقية عما فعلته الحرب.

لكن الآن، الآن تحديداً، أنا لست مشغولة سوى بالسكون، السكون الذي يغمرني مثل شعاع مرمري، لا يكذب.

* * *

مارغريت ممددة في سريرها، ويان أندريا يجلس ممسكاً يدها المرتجفة بيده اليسرى، أما يده اليمنى فتمسك قلم حبر أسود يكتب به على ورقة بيضاء كلمات تمليها عليه، وتقطعها لتحدّثه بعبارات توجهها له، فلا يعرف هو ماذا عليه أن يكتب لأنه يحس أن تلك الجمل الموجهة له، جزء من النص أيضاً.

"الوقت... الوقت... الرهان على الوقت أمر سخيف، بلا جدوى، هل تظن أن ليس ثمة رهان يجري من حولي عن مدى الوقت

fb/mashro3pdf

المتـــروك لي. يـــا لها من معادلة غبية. ربما تفكر أنت أيضاً في الوقت المتاح لي. لكن الآن.. الآن.. لا شيء بعد الآن سوى الانتظار الممل. انـــتظار أنـــا محكومة به، نحن محكومون به كي نبقى. لا فرار، طوال سنوات الانتظار الماضية، كنت أتمسك بزمن "الآن"، وألهث لأمسك بخيوط الكلمات. الكتابة كانت ملاذاً لي. الآن أنا لا أقوى على فعل شيء".

"يا له من أمر سيئ أن نفقد قدرتنا على الحذف، أن نطلب من أحـــد مـــا شطب كلمة قلناها، لأننا عاجزون عن الشطب. ولأننا محكومـــون بالموت، وبفرضية حلم كبير هو حياتنا، التي لن تكون في النهاية أكثر من حلم، حلم قد يستمر تسعين أو مئة سنة، لكنه يزداد بـــشاعة كلمـــا طال زمنه. وبعد ذلك لا شيء، لن يبقى شئ لأننا محكومون بالنهايات. أنت أيضاً محكوم بالنهاية. أنا جئتُ إلى هنا بحثاً عن العزلة، ثم جئتَ أنت، صرنا معاً اثنين يتمسكان بالزمن الحاضر، لكن الحلم يقترب من النهاية. هل تدرك ذلك؟".

لم يعقـــب يان على كلماتها، شد على يدها، ثم أسند رأسها إلى صدره.

"أطفئ النور، أريد النوم، هناك ضجيج في الأسفل، اذهب وقل لهم إني أود النوم، أو فليأتوا إلى هنا لأخبرهم عن حاجتي للسكون".

تَحـــرَّكَ يان خطوات نحو الباب، إلا أنه عاد واقترب منها حين نـــادت علـــيه. كان جسدها يرتعش تماماً وهي تحاول النـــزول من الـــسرير. طلـــب منها بهدوء أن ترقد في سريرها، لكنها نظرت إليه بثبات، وجهها بدا مثل شمعة مستديرة تجرحها خيوط رفيعة، وتتوهج فيه عينان قويتان. قالت: "أتدري ما الذي أريده الآن؟".

أومأ يان برأسه وهو يقول: "بنفسج؟".

fb/mashro3pdf

قالت: "البنفسج لأنه الأكثر قوة وهشاشة، لذا أحبه".

تنازعتها حالتان، الرغبة في المضيّ إلى أسفل، وعدم قدرتها على الحركة، جسدها كان كتلة مرتعشة، لكنها أرخت يدها عن يد يان أندريا، وأسندت رأسها إلى الوراء، ثم كررت طلبها في إسكات الأصوات الصادرة من الطابق السفلي.

"ابْقَ هنا، معي، حتى أنام.. ابْقَ هنا، لن أغفو وحدي".

أسندت مارغريت رأسها إلى الوسادة البيضاء الرقيقة، أغمضت عينيها في محاولة رشيدة كي تنام بعمق. ظل يان قريباً منها، غافياً، لكنه لم ينم، ظل بجانبها حتى غمرت العتمة المكان.

حين وعى، كانت مارغريت نائمة تماما.

* * *

من نافذتها تواصل زينب تأمل كل ما يدور حولها. حركة العصفور الذي يفرد جناحيه بفزع وهو يتنقل بين أسلاك عامود الكهرباء، الأشجار هرمة، السماء حادة الزرقة كما لو أنها جدار واسع لا حدود له، أو مكان ملائم لكرنفال عابث، الشوارع داكنة بشدة، منفصلة عن زرقة السماء الواسعة. تساقطت ريشات من جناح العصفور، لكنها تلاشت في الهواء تماماً، كما لو أنها لم تكن.

تريد أن تتكلم مع الله، أن توصل كلماتها إليه، تريد أن تسأله عن الغاية من غياب كل من تحبهم! عن الغاية من رحيل ساندرا المفجع! أين هي ساندرا الآن! في قبر رخامي بارد، في تابوت تحت الأرض، تسمع جنون الحرب ولا تقوى على الحراك.

بعد موت أبيها، كانت زينب تخاطب الله كثيراً، بحثاً عن أب.

لكن منذ أعوام طويلة توقفت عن التخاطب معه، ظلت قريبة منه لوقت طويل حتى اكتشفت أنها بعيدة جداً، معزولة في شرنقة من

fb/mashro3pdf

تخـــيلاتها وأوهامها عنه. عرفت أن عليها البحث من جديد عن طريق حقيقـــية توصـــلها إلـــيه. ظلت لسنوات تفكر أن ذهابها إلى الجامع، وحـــضور دروس الدين، والاستماع لمواعظ الحاجة منى، وكل ما تقوم بـــه مـــن استسلام لإرادة أمها، وعدم الجهر بأي رفض هو نوع من الرضـــى، التماهـــي مع القدر، تَرْك دفة القيادة له. لكن هذا كله كان وهماً كبيراً. ظلت زينب حريصة على عدم تلويث طيبتها بأي ضغينة، لكـــن هزائمها الذاتية كشفت لها أن الطيبة وحدها لا تكفي لمواجهة الحياة. ثمة شيء تلاشى تماماً. تكسرت الجسور بينها وبين الله، وتوقفت عـــن مخاطبـــته كما كانت تفعل في ليال كثيرة. و لم يَبْقَ معها من تلك المرحلة سوى حجابها الأبيض الذي صار جزءاً من ذاتها لأنها تحتمي به، كما لو أنه يقيم حاجزاً بينها وبين الآخرين.

أمـــا الآن فها هي تعود لمواجهة كل تلك التساؤلات التي ظلت تتجاهلها لوقت طويل.

* * *

يان أندريا..

كل ما أكتبه يبدو بعيداً عن القصة الحقيقية. سأكتب حكايتكما مـــن جديد، سأكتب عنكما وعني، وعن ابني الذي لم يأت بعد، ابني الذي سأعطيه قطعة شوكولا بالبندق، الأطفال يحبون الشوكولا، لكني فقدت القدرة على الاستمتاع بها منذ زمن طويل. هل تفضّل الشوكولا السوداء؟

الحرب وصلت إلى نهايتها...

يقولـــون إن الحـــرب وضعت أوزارها، وكما لو أن قافلة كانت تـــسير، ثم ألقت حمولتها على الأرض، وتناثر كل شيء... هل تنتهي الأمور بسهولة كما تبدأ؟

fb/mashro3pdf

قبل الحرب كانت ساندرا هنا...

قبل الحرب لم أكتب لك كل هذه الرسائل. ولم أفكر كثيراً بك، كنت على وشك نسيان قصتي القصيرة معك.

لكـــن الآن أشـــياء كـــثيرة تغيرت، الآن صرت أفكر في قصة مارغريت معك، أكثر مما أكتب عن حكايتي.

ثم لماذا أرهقك بكل هذه الكتابة؟

هل لأن الكتابة هي حاجتنا للهرب من العالم الغريق؟

رغبتنا في البوح بحكايات لم تحدث..

أشياء تفرحنا وتبكينا في لحظة واحدة.

يـــبدو مـــن العبث أن تحيا بين أكثر من حالة، أكثر من مكان.. أكثر من كتاب.. أكثر من بيت، وقلب واحد مثقوب.

من العبث الذهاب والإياب بين سبع موجات، وسبعة أزمنة، كلها تغزل من خيط الآن، حيث الشمس التي أشرقت علينا مراراً تعرفنا جيداً. حيث الأرض رغم تغير قشرتها تبصرنا بعيون واسعة ويد مفتوحة.

إنها مسألة وقت. مسألة وقت ليس إلا.

كـــل التفاصيل مسألة وقت، حتى الموسيقى التي لم نسمعها معاً، ثمة عازف في مكان أعرفه ما زال يُعيد اللحن الذي صار مكروراً لأهل البلدة.

الكاتـــبة التي تحبها أنت، ماتت منذ سنين، وأنا ما زلت أفكر بها، وأبحث في تقاطعات أيامي مع أيامها، وأنت ما زلت تبحث في قصتكما المـــربكة. هناك أيضاً حيرتي الأبدية، الأسئلة التي لم أفكر بها، وأشياؤك الصغيرة التي لم أعرفها بعد. ربما يكون كل هذا مسألة وقت.

لكن الآن، أريد الحياة، أريد الحياة بكل قوة، ما زال لدي الكثير لأفعله، لأقوله، لأكتبه.

* * *

fb/mashro3pdf

صـــوت موســـيقى. عزف بيانو يتسلل قوياً في هذا النهار، لكنه يـــتقطع في نغمات شاذة هذه المرة، صوت الموسيقى يحاصر البيت من كـــل الجهـــات، دقائـــق ثم تلاشى الصوت قبل أن تتمكن من معرفة مصدره.

البيت هادئ جداً، غادرت سريرها تبحث عن أمها، عن سامر، لكن كل الغرف فارغة، ما من أحد في البيت سواها. أين ذهبا في هذا النهار!

في مرآة الحمام، وهي تغسل وجهها، رأت وجهاً هادئاً، تطوف حـــوله أفكار ما زالت تحتاج لصياغتها كي تكون واضحة. لكن ثقة بـــريئة لمعـــت في عينيها وهي تفرك وجهها برغوة الصابون، وتفكر بأنهـــا جادلـــت ذاتهـــا كـــثيراً حول الوهم والحقيقة، حول الموجود والغائـــب. لكـــن هذا كله لم يشكل سوى جزء من الإجابات التي تبحث عنها.

دخلـــت إلى المطـــبخ، نظرت من النافذة، في شرفة المرأة العجوز وقـــف شاب مراهق، يرسل إشارات لفتاة في مثل سنه تسكن في مبنى مجـــاور، يحرك يديه مؤكداً أنه سيتصل بها. تابعتهما زينب وهي تضع غلاية القهوة على النار، ابتسمت في سرها، وأحست أنها جائعة قليلاً. كانـــت تشرب قهوتها وتأكل خبزاً طرياً مع مربى البرتقال، تفكر أنها ستغادر البيت بعد قليل كي تذهب إلى بيت ساندرا لتجمع كل الصور الـــتي التقطـــتها قبل موتها، ستختار الصور المناسبة لتقيم المعرض الذي أرادت صديقتها القيام به.

بعـــد أن ارتدت ثيابها، وهي تقف في الصالون لتغادر، رن هاتفها المحمول، كان أخاها سامر، صوته بدا فرحاً وهو يخبرها أنه موجود في بيتهم هو وأمه، وأن البيت يحتاج لكثير من الإصلاحات قبل أن يتمكنوا

fb/mashro3pdf

من العودة إليه. طلب منها القدوم لمساعدتهما، لكنها أجابته بحسم أنها لن تقدر لأن لديها أمراً مهماً يجب عليها فعله.

عيناها تطوفان في جدران بيت خالها، تتعلقان عند الأبواب، وعند الغرفة المغلقة على سرها العتيق. إذن... اقترب زمن مغادرتها لهذا البيت. سارت زينب نحو جهاز الكمبيوتر، كبست زر التشغيل، استغربت أنها لم تجد أياً من أوراقها البيضاء التي تتركها قرب الكمبيوتر، دخلت إلى غرفة النوم، تبحث عن الدفتر الذي تكتب عليه في العتمة، كانت الكوميدينو قرب السرير خالية إلا من الأباجورة الصغيرة، وروايات مارغريت دوراس.

على سطح الكمبيوتر، هناك كثير من الملفات التي تحتاج منها إلى قراءة قبل أن تقرر أو تعرف ما هي الصفحات التي كتبتها في الأيام الماضية، أو التي كتبتها قبل الحرب، أو إن كانت كتبتها حقاً. لكنْ هناك دفتر مفقود، لا تذكر أين وضعته آخر مرة، لأنها كانت تكتب أحياناً على الأوراق، أو لا تكتب وتفترض أنها كتبت. فتشت في الغرفة التي تنام فيها مع أمها، بحثت عن دفترها في الصالون، في أدراج غرف النوم، حتى إنها دخلت إلى الغرفة المشؤومة و لم تجد شيئاً. لم تعرف كم مضى من الوقت وهي تفتش، لكن ينبغي عليها البحث من جديد. العثور على ما ضاع منها في ساعات الليل. حَسْم حقيقة الأمر، بين ما كتبته حقاً، وما افترضت فعله..

لكن ليس هناك وقت الآن، يجب أن تغادر، أن تذهب إلى بيت ساندرا، أن تجمع الصور في أسرع وقت. وتفعل ما كانت ساندرا ستفعله.

وهي تنزل الدرج المعتم، شاهدت شابين يتعاونان في حمل شيء ثقيل، وقفت في الزاوية تنتظر عبورهما. حين غادرت المبنى، رأت

fb/mashro3pdf

الـــشابين يـــضعان في المقعـــد الخلفي لسيارة جيب بيانو كبيراً أسود.
ابتسمت وهي تسير في الشارع، كانت تردد في سرها:
"صوت الموسيقى كان حقيقة.

fb/mashro3pdf

الكاتبة في سطور

- كاتبة لبنانية، تقيم في القاهرة.
- حاصلة على الدكتوراة، في قسم اللغة العربية " الدراسات الأدبية" وموضوعها
- (دلالة الجسد في السيرة الذاتية، في الرواية النسائية (الرواية اللبنانية نموذجاً) عام 2010.

صدر لها في الرواية:

- حدائق السراب، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2006
- تلامس، الدار العربية للعلوم ناشرون، 2008

صدر لها في القصة القصيرة:

- أوهام شرقية ، وكالة الصحافة العربية 2004
- الموتى لا يكذبون ، وكالة الصحافة العربية، 2006

الموقع الإلكتروني للكاتبة:

www.lanaabd.com
lana@lanaabd.com
lnaabd@hotmail.com

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf